الفصل الرابع

أسطورة المكان

(١)

اتجاه أديب الأسطورة العربى إلى الشخصيات والأماكن ذات الأهمية فى العصر الإسلامى أتجاه طبيعى لأنه وسيلة لا تتعارض إطلاقاً مع الأحداث الإسلامية الثابتة ولا مع الاتجاه الإسلامى السليم نحو إزالة كل ما يشكك فى العقيدة وكل ما يحدث اللبس فى نفوس المسلمين . وهو اتجاه سليم أيضاً لأنه وسيلة من وسائل تقريب هذه الشخصيات ، وهذه الأماكن إلى قلوب أصحاب الدين الجديد حيث يمتزج الاقتناع العقلى بالاستهواء الوجدانى فى نفس المؤمن ، فيعمل هذا على تأصيل إيمانه وتثبيته .

من هنا امتلأت كتب السير والأخبار والأدب بأعمال أديب الأسطورة العربى ومن هنا اختلطت فى كتب المفسرين حقائق التاريخ بنتاج أديب الأسطورة العربى .

وقد وجد أصحاب الأقلام والخيال فى الإشارات القرآنية مجالاً خصباً لأعمال أقلامهم وخيالهم ... فالقرآن الكريم قد استعان بالقصص فى إثبات مفاهيمه وفى تأصيل قيمه الجديدة التى يحملها إلى البشرية ... والقصص القرآنى قد أتاح بهذا الفرصة لأصحاب الأسطورة من كتاب العرب فى أن يستفيدوا من المادة الخصبة البشرية التى قدمها لهم بذكره للأمم البائدة وبإشاراته إلى الأماكن بل وبإشارته إلى الأحداث .

ومن هنا تعرض أديب الأسطورة العربي دون حرج لكل ما بقي في ذاكرة العرب من أسفار ورجز وحكايات حول هذه الأماكن والأشخاص والأحداث التي وردت حكاياتها داخل القصص القرآني دون شعور بالتحرج .

وقد سميت هذه الأعمال حين اندست بين ثنايا كتب التفسير باسم الإسرائيليات إشارة إلى أن مداخلها إلى التفسير لم تكن طبيعية لأنها ليست حقائق مؤكدة وأنما هي من دس بعض العناصر الدخيلة على الإسلام . وأول العناصر المعادية للإسلام هي العناصر الإسرائيلية ، فنسبت هذه الأعمال إليهم ، وإن كان الأمر في الحقيقة غير هذا تماماً .

فالأمر أنما كانت المتنفس لأصحاب الأدب من هواة الأسطورة وكتابها العرب ممن حجب الإسلام ابداعهم المنبثق من التراث الوثني القديم والمرتبط بالمعتقدات الوثنية القديمة فوجدوا الفرصة للتحرك داخل هذا الاطار ولم يكن الذنب ذنبهم حين خلط المفسرون بين ما يمكن أن يكون وليد التحقيق التاريخي والتمحيص العلمي ، وبين ما هو وليد ابداع خيال عربي جامح يحن حنيناً طبيعياً لموارده الوجدانية والخيالية الطبيعية .

وهذه الأعمال لم ترد متناثرة في كتب السيرة وكتب التاريخ والتفسير وحسب وأنما أمتد آثرها إلى كتب المجمعات القصصية الشهيرة في التراث العربي ، وأمتد أثرها كذلك وبصورة واضحة إلى كتب السيرة الشعبية التي اشتهرت باعتبارها من أعمال العامة والقصاصين الشعبيين وحظر دخولها دائرة الأدب الرسمي المعترف به .

ونحن نلمح مثلاً أصداء لسورة الفيل التي أشارت إلى حادثة غزو ابرهة لمكة ومحاولة هدم الكعبة والتي قدمت كتب التفسير لها أكثر من عطاء تاريخي أحياناً وتاريخي . بلقيس بالأسطورة أحياناً ، نلمح أثارها في غير كتب التفسير كلها ، ونحن نقف عند واحد من الأعمال الشعبية المتأخرة زمناً ، وأثرها هنا ليس محاولة

للتفسير أو لحكاية ما يمكن أن يدور حول النص القرآني أو حول الحادثة التاريخية نفسها من أثار للخيال أو الأبداع ، أنما هو تأثر أدبي واضح ، بمعنى أنه استهداء بالحدث الذى اشارات إليه السورة القرآنية فى خلق حدث آخر قريب ولكنه يخدم غرض الروائى الشعبى فى ربط بطله بالأحداث الإسلامية لتقريبه إلى نفوس المتلقين وتأصيله فى وجدانهم .

وأديب الأسطورة العربى حين يهرب بحدثه الأثير كل هذه الفترة الزمنية ما بين ظهور الإسلام وكتابه سيف بن ذى يزن أنما يؤصل بقاء اللمحة الأسطورية فى قيمة المتفنن العربى عبر الأجيال والقرون ليستخدمها استخدامها الروائى حين تستدعى الحاجة إلى هذا ... فيقول أنه كان ملكاً ذا عز وتمكين شديد البطش والسلطان وقد دخله الغرور يوماً وهو يستعرض جيوشه الجرارة ... وأقسم باللات والعزى أنه ما حاز ملك مثل هذا العسكر الجرار وسأل وزيره يثرب – وكان رجلاً صالحاً أطلع على كتب الأقدمين وقرأ التوارة والأنجيل وآمن بمحمد قبل ظهوره . سأله الملك أن كان هناك ملك أعظم وأكبر جنداً منه – وحين أخبره الوزير يثرب أن فى بلاد الشرق ملكاً أسمه بعلبك صاحب همة وبأس كثير الفرسان وجنوده أبطال لا يهابون الموت ، أغضب ذويزن وأقسم لأن يخرج إليه لقتاله فجمع جيوشه وجهزها للقتال استعداداً للرحيل ...

ويقول كاتب سيرة سيف بن ذى يزن المعاصر

" وما أن أشرقت شمس الصباح حتى ركب الملك وأمر الحجاب أن ينادوا فى الجيش بالرحيل ... وسار الموكب الكبير يهز الصحراء بأفياله وإبطاله وقواده ، ومضت أيام ثلاثة وأقبل الجيش فى اليوم الرابع على بيت الله الحرام .

ونظر الجنود فإذا بالوزير يثرب يترل عن راحلته ويسجد أمام البيت الحرام وأسرع إليه الملك ذويزن غاضباً وهو يصيح :

ما هذا الذى تفعل يا يثرب ؟

واستوى يثرب واقفاً وهو يقول :

اعـــلم أيهـــا الملـــك أننا قد أتينا بيت الله الحرام ، ومنزل ملائكته والأنبياء والرسل العظام ... فهذا بيت الذى خلق السماء والأرض والجبال ....

فقال ذويزن :

أنا لا أعرف من الإلة إلا اللات والعزى .

أيها الملك الهمام أن اللات والعزى شيء خلقه الذى هذا بيته .

ومن الذى عمر هذا البيت ولم يكن هنا إلا خراب ؟

فقال الوزير يثرب :

أعلم أيها الملك أن الله تبارك وتعالى أمر آدم عليه السلام أن يسير إلى الكعبة ويعمر البيت الحرام ، ووضع جبريل القواعد وعلم آدم البناء ، ثم أمر جبريل آدم أن يحج إلى البيت كل عام ومعه الملائكة .

وكان الملك ذويون يسمع حديث يثرب صامتاً ، فلما أنتهى من كلامه قال له:

يا يثرب ... ماذا تأمرنى أن أفعل بهذا البيت ؟

أنزل وطف به ..

فأمر الملك بنزول العساكر ، ثم دخل هو والوزير يثرب ليطوفا بالبيت .

ويمضى الكاتب فيقول :

" كـــان الملك ذويزن يجرى ويطوف بالبيت ، وهو يديم إليه النظر وكلما أطال ذويزن النظر إلى البيت زاد قلبه حديث الغرور ومضى يحدث نفسه أن يهدم البيت وأن يـــأخذه ليفـــتخر به على جميع ملوك الأرض ، فلا يعلو على مكانته أحد وما أنـــتهى مـــن الطواف حتى كان هذا الأمر قد أستقر فى قلبه وملك عليه لبه فأمر الوزيـــر أن يعـــود معه إلى الصيوان ... وعاد الملك والوزير إلى الصيوان وكل

منهما يسبح فى أفكاره وتأملاته ... وما أن استقر الملك فى مكانه من الصيوان حتى التفت إلى وزيره يثرب وقال له :

- أننى أريد أن أهدم هذا وأن أنقل حجارته إلى بلدى وأفخر به على سائر ملوك الأرض .
- قال له الوزير :
- أيها الملك ... أن البيت له رب يحميه ، فلا تطع حديث نفسك فتندم حيث لا ينفع الندم .
- فغضب الملك وثار وصاح فى ثورة .
- وحق اللات والعزى لابد من هدمه ... ولن يجرؤ أحد أن يقول لذى يزن كلمة لا ...
- وأمر الملك بإحضار المهندسين والبنائين والقطاعين ، وغير هؤلاء من أصحاب المهـــن وأمرهم أن ينفضوا بناء البيت حجراً بعد حجر بحساب ، وبعد أن ظل زمناً يوضح لهم حقيقة ما يريد صاح منهم :
- وأعلموا أن كل من كسر حجراً كسرت رأسه وأحدثت حسه ...

وأنصرف الجميع من أمامه يهرولون إلى خيامهم يتدبرون أمر ما كلفوا به ... أما الملك ذون يزن فما فما أن خلاً من حوله الصيوان وأنفض الاتباع والجند حتى آوى إلى فراشه مجهداً من تعب النهار وإحلاله التعسى ومنى العلمة والتفوق .

وأقـــبل الصباح وآفاق الملك من نومه ، فإذا هو قدر الفيل العظيم وقد تورم جسده وتضخمت أعضاءه فأخذه الأذهان ومضى فيصيح من فرط الإنفعال طالباً وزيره يثرب وعاد الحاجب بالوزير الذى أسرع إلى الملك وهو يردد :

- ما الخبر أيها الملك السعيد ؟
- فان الملك وقال :

- لقد أصبحت فوجدت نفسى على هذه الحال .
- قال الوزير :
- يا ملك الدنيا ، هذا سهم رماك به رب البيت .
- يا يثرب ... أشهد على أنت وكل الحاضرين أنى صرفت نيتى عن هدم هذا البيت وأمنت بربه " .

ويمضى الكاتب ليصف لنا بعد ذلك كيف أبلّ الملك مما أصابه فى اليوم التالى بعد أن أعلن توبته أثر نصيحة الوزير وعظاته له ... ولكن نفسه تحدثه مرة أخرى بهدم البيت فيأمر مهندسيه وبناءه بذلك إذا ما جاء الغد ويقول الكاتب :

وعند ما نام الملك هذه الليلة استيقظ على ورم أخبث من سابقة فأمر بإحضار الوزير الذى قال له :

- يا ملك الزمان : أنت آمنت برب هذا البيت أول مرة ورجعت عن نيتك ، فعد إلى الحق وأصرف نيتك عن هدم هذا البيت وآمن برب هذا البيت وبنبيه الخليل إبراهيم ...
- فأجاب الملك وزيره إلى ما أراد ... ويأت تلك الليلة وأصبح فوجد نفسه سليماً معافى وسرعان ما رجع إلى نيته الخبيثة ونقض عهده للوزير وما أن بات وأصبح حتى وجد نفسه فى حال أشد مما مر عليه ... وحضر الوزير يثرب إلى الملك العليل ، فلما رأه الملك أطلق الله لسانه وأندفع يقول :
- أيها الوزير ما بقيت فى نفسى القدرة على طلب المحال ، وأنى أعلن لك عزمى على الرجوع عن هذه الأفعال .
- قال له الوزير يثرب :
- لقد آمنت مرتين ورجعت ، وأن أنت عدت مرة أخرى فأنت من الخاسرين الهالكين ، وتلحق بالقوم الكافرين ... وإن أنت آمنت حقاً وصدقاً برب

هـــذا البيت وبنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام بعدت عن العذاب بعد اليقين ومصيرك جنات النعيم .

- قال ذو يزن :
- أيها الوزير العاقل اللبيب ... أشهد أنى قائل على يديك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن إبراهيم خليل الله ...

وأمـــر جنده بالإسلام فأسلموا عندئذ أظهر الوزير يثرب إيمانه وأعلنه ... وحين نام الملك هذه الليلة رأى هاتفاً يصيح به أن يكســـو البيت الشريف ... وفى الصـــباح أمـــر بكسوة البيت خسفاً ، ولكنه عندما نام جاءه الهاتف مرة ثانية يأمره أن يكسو البيت غير هذا فأمر فى الصباح أن يكسى البيت بالحرير ، ، وما أن انقضى النهار حتى كان الصناع قد فرغوا من أمر الكسوة ونام الملك وإذا بالهاتف يأتـــيه للمرة الثالثة ويأمره أن يكسو البيت غير هذا ... فلما أفاق من نومه أمر بزركسة الكسوة بالفضة والخزف والذهب ... وصارت هذه الكسوة تعلن عنه لمن جاء بعده من الملوك .

هـــذه الوقفـــة الـــتى يقفها كاتب سيرة سيف ذلك القصاص الشعبى المجهول استدعاء للعمل الأسطورى الذى يحيط بالمكان ويحيط بالأحداث، وربما كان الأمر كمـــا قلنا أستهداء وأقتباساً من وحى السورة الكريمة ، وربما كان الأمر بالخيال فى متبقـــيات أســـطورية أرتبطت بالبيت العتيق ذاته ... وعلى أيه حال فليس هذا العمل هو الوحيد الذى نسجه خيال كاتب الأسطورة العربى حول البيت العتيق ، وأنما نحن وقفنا عند هذا النموذج لأنه جاء متأخراً ومضمناً فى عمل ضخم هو سيرة سيف بن ذى يزن التى تفيدنا فى هذا المجال كثيراً ...

*****

(٢)

إن كـان قـد تعـذر على أديب الأسطورة العربى أن ينقل لنا معارك الإلهة وصراعهم والأحداث التى ترتبط بطقوس عباداته الوثنيين ، فقد أستطاع أن يجد فى الوقوف عند الامحنة ذات الطابع المتأصل فى الوجدان العربى ، والذى ظل محتفظاً بتأصله هذا بعد الإسلام مجالاً واسعاً ودنيا رحبة ينطلق فى جنباتها كيف شاء ، يقول الدكتور عبد الحميد يونس فى كتابه الحكاية الشعبية ...

مـن العسـير أن نضع تعريفاً للأسطورة يجتمع عليه رأى العلماء المتخصصين ويكـون فى الوقت نفسه مرضياً ومقنعاً لغير المتخصصين ، وذلك لأن الأسطورة واقع ثقافى ممعن فى التعقيد ، تختلف حوله وجهات النظر .

وحسبنا أن نورد هذا الوصف الذى يتسم بالشمول وهو أن الأسطورة تروى تاريخـاً مقدسـاً ، وتسـرد حدثاً وقع فى عصور ممعنة فى القدم ، عصور خرافية تستوعب بداية الخليقة أو بعبارة أخرى : الأسطورة تحكى بوساطة أعمال كائنات خارقة كيف برزت إلى الوجود حقيقة واقعة ، وقد تكون كل الحقيقة أو كل الواقع مثل الكـون أو العالم ... وقد تكون جانباً من الحقيقة مثل جزيرة من الجزر أو فصيلة من النبات أو ضرب من السلوك الإنسانى أو منظمة اجتماعية .

والأسطورة بهذا المعنى قصد وجود ما ، فهى تروى كيف نشـأ هذا الشىء أو ذاك ، وهـى ترتبط بالواقع فى أولياته ، وأبطالها كائنات خارقـة يعرضون بما حققوا فى عصور التكوين "[1] .

(١) الحكاية الشعبية : للدكتور عبد الحميد يونس .

ولم يقصر أديب الأسطورة العربي في هذا المجال ... فامتلأت أعمال كتب التاريخ بمثل هذه المحاولات في تفسير وجود الكون ، وتفسير ظواهر التاريخ ، والوقوف عند الأماكن والأشياء .

وإن كان هذا الأديب قد ارتبط بالتفسير الإسلامي لنشأة الكون وربط تسلسل التاريخ البشري طبقاً للتسلسل الذي قدمه الإسلام (فدارت أعماله حول خلق العالم مغلفة تماماً بهذه المفاهيم ومرتبطة بها . وكل الكتب التي تعرضت لخلق العالم لم تستطع أن تقدم إلا بعض الإضافات الأسطورية التي لا تتعارض في جوهرا مع القصص القرآني . ومن هنا توحدت الشخصيات ، بل وتوحدت الأحداث في معظم الأحيان ، وتوحدت أيضاً المفاهيم والرموز .

وقد وجد أديب الأسطورة العربي المجال في الأماكن وخاصة المدن ، وقد رأينا موقف كاتب سيف بن يزن من الأساطير حول الكعبة وهدمها وكسوتها وارتباط الحدث عنده بالمفهوم الديني الإسلامي والعربي القديم الذي يعطي القداسة عريقة موغلة في القدم للكعبة فإذا أضفنا إلى هذا بعض الظواهر في هذه السيرة الشعبية أكتملت الصورة التي نود أن نلفت إليها ونقف عندها .

يروى أديب الأسطورة الذي أنشأ سيف بن يزن أن هذا الملك أمر جيشه بالتحرك بعد أن كسا الكعبة بالخز والديباج وسار الجيش بفرسانه وجنوده يشق السهول والوديان ، فرسخاً وراء فرسخ إلى أن قطع سبع فراسخ ... وما أن أهبل الجيش على الفرسخ الثامن حتى وجد القوم أنفسهم في واد نضر الأشجار ، متدفق المياه فيه الطيور والجوارح والحيوان ... فأمر الملك ذي يزن جنوده بالنزول في تلك الأرض .

وفي الصباح أقبل الوزير يثرب على الملك ذي يزن ومثل بين يديه وقال :

أعـــلم أيها الملك أنى رأيت فى الكتب القديمة والملاحم العظيمة أن الله تعالى يبعـــث فى آخـــر الزمان نبياً هاشمياً قرشياً ، يهاجر من مكة إلى هذه الأرض الطيبة ويكون فها سكنه وقبره ، وأحب أن أبنى فى هذه الأرض مدينة ... فأذن الملك وأجـــتهد الوزيـــر فى عمارة المدينة وبنائها ، ثم أسكن فيها قوماً من قومه بنسائهم وأولادهـــم وسمى المدينة باسمه يثرب ... ثم شد الملك ذى يزن ورجاله الرحال يقطعون القيافى والآكام قاصدين ديار الملك بعلبك " .

وتســـتمر قصـــة بناء يثرب بعد هذا والكتاب الذى كتبه الوزير وختمه وأمر أهلـــه الذيـــن أسكنهم بالمدينة أن يتوارثوه جيلاً بعد جيل إلى أن يسلموا إلى النبى القرشى صلى الله عليه وسلم حين يأتى إليهم مهاجراً ...

فالأســـطورة هنا حول المدينة يثرب وكيف بنيت ... ولكنها أيضاً مرتبطة بـــالمعنى الإسلامى والدينى ... والعمل كله خلق أسطورى حول المكان لا تعرفه الحقـــيقة العلمية ولكن تعرفه روح الفن وروح الاستهداء بالحدث الخارق والمكان المقدس لتنسخ حوله ما يربطه بمفهوم القداسة وما يرتبط به من غيبيات وخوارق لا يدركها العقل المجرد .

والمهـــش أن سيرة سيف بن ذى يزن مليئة بالتفسيرات الأسطورية حول أسماء الأمـــاكن وخاصة المدن المصرية ... فمن أبناء الملك سيف مصر وهو الذى بنى مديـــنة مصر ودمر وهو الذى بنى مدينة الشام والأولى هى القاهرة والثانية دمشق والاسمان يستعملهما العامة للدلالة عليهما .

وزوجة الملك سيف هى الملكة جيزة وهى بنت الملكة أهيم وهى التى أسست مدينة الجيزة ...

ومن فرسان الملك سيف دمنهور الوحش ومن حكمائه وعلمائه أهيم الطالب، والإشارة هنا واضحة إلى مدينة دمنهور وإلى مدينة أهيم .

والدراســـة هنا قد تفيد فى تبيان معانى هذه التسميات ودلالاتها ولكنها آخر الأمر ستضح أمامنا أعمالاً أسطورية كتبها أديب الأسطورة العربى حول هذه المدن واحاطهـــا وأحاط بناءها بأحداث خارقة مرتبطة بالسيرة الشعبية نفسها أى سيرة سيف بن ذى يزن التى توقفنا أيضاً وقفة أخرى .

والوقفـــة هنا عند الوصف الذى اطلقه أديب الأسطورة على سيف حين ذكر أنه أبو الأمصار وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار .

فسيرة سيف بن ذى يزن أذن عمل ضخم ملحمى يدور حول النيل .

وهـــى ســـيرة شـــعبية من أبرز السير الشعبية العربية التى حفظها لنا الضمير الشعبى الفنى العربى إلى جوار سيرة عنترة وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر وسيرة على الزئبق . كما أنها ملحمة نثرية شبيهة بتلك الملاحم الكثيرة التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى من ناحية النباء والتأليف . وهى آخر الأمر عمل يدور حول نهر النيل ليقول صاحب كتاب أضواء على السيرة الشعبية :

أحداث السيرة تقول أن مهمة سيف بن يزن الأولى ، هى إحضار كتاب النيل الـــذى يحـــتجزه الأحباش فى بلادهم – ويخيل للكاتب أنهم باستيلائهم على هذا الكتاب ، قد حجزوا النيل عن مصر ، فإذا ما جاء سيف بن ذى يزن واستولى على الكتاب وأجرى ماء النيل وأنشأ مصر التى سماها باسم أبنه البكر يقرر ، حق مصر فى النيل قد تأكد بحكم الفتح إذا استولى سيف بن ذى يزن على كتابه بحد السيف.

وأى دارس لـــلأدب الأسطورى العربى يجب أن يقف وقفة طويلة عند سيرة سيف لا باعتبارها عملاً شعبياً وأنما باعتبارها عملاً جمع كل المكتيقيات الأسطورية عـــند القصـــاص العربى حول وادى النيل كله . فالأحداث تدور داخل المعابد . وبعضـــها يســـتغل المسلات والتماثيل . كما أنها تدور فى بلاد الحبشة وفى قلب أفريقيا حتى تصل إلى جبال القمر حيث منابع النيل ومكمن كتاب النيل .

وهـــذه الرحلة تحتاج إلى أن تدرس دراسة وافية فأن الحقائق تقول أن النيل ينـــبع مـــن فيكـــتوريا نيانزا وحولها جبال تسمى جبال القمر ... ومن السيرة وســـردها الأسطورى نعرف أن النيل يوجد سره وكتابه فى جبال القمر . وتجرى أحداثها فى جبال القمر وفى المنطقة المحيطة بها والتى خبأ فيها سليمان كنزة . وهذه الكـــنوز مع غيرها من كنوز وذخائر سام بن حام ، وسيف أصف وزير سليمان تربط كلها بين أحداث السيرة وبين المتبقيات الأسطورية فى التاريخ العربى القديم .

وما وقفنا عند سيرة سيف بن ذى يزن يقصد دراستها وأنما وقفنا عندها عند حديثـــنا عـــن العمـــل الأسطورى المرتبط بالمكان أو المدينة ذات الثقل والوزن فى الحضَارة الإسلامية بعامة والعربية بخاصة .

وواضـــح أن بعض الأحداث مترســـــبات أسطورية بقيت فى ضمير الناس واستغلها القاص ، وواضح أيضاً أن بعض الأحداث الأسطورية التى خلفها الكاتب ونســـجها نسجاً حول الأمكنة مخترع اختراعاً لأعطاء الأسماء الموجودة فعلاً عمقاً وعراقة .

وولع كاتب الأسطورة العربى بالوصول بكل الأشياء على أبناء نوح سام وحام ويافث ولع ملحوظ ، وهم بالطبع أشد ولعاً بسام بن نوح بالذات بأعتباره الأب الأصلى للرعب والساميين بعامة .

وقـــد اختلطـــت هذه المحاولات الأسطورية بالتاريخ الحقيقى وأمتزجت به فى ذهـــن الكـــثيرين من العلماء العرب فنحن نجد فى كتاب الأكليل للهمدانى وهو كـــتاب تاريخ لبلدان اليمن وقصورها مثل هذا الاختلاط الذى يدخل الأسطورة فى الحقائق أو يمهد بالأسطورة إلى الحقائق نفسها ، والذى يتقبله المؤرخ العربى دون تحرج كبير . عند حديث الكتاب عن غمدان يقول :

" اقدم شيء قصر غمدان ، قال الحسن الهمدانى : أول قصور اليمن وأعجبها ذكـــراً وابعدهـــا صيتاً غمدان وهو فى صنعاء . والذى أسس غمدان وابتدأ بناءه واحتفر بئره التى هى اليوم سقاية المسجد الجامع بصنعاء ، سام بن نوح اجتوى بعد أبيه السكنى فى أرض الشمال وأقبل طالعاً فى الجنوب يرتاد أطيب البلاد حتى صار عـــلى الأقليم الأول فوجد اليمن أطيبه مسكناً ، وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيب ماء بعد المدة الطويلة ، فوضع مقرانه وهو الخيط الذى يقدر به البناء ويبنى علـــيه بناءه إذا مده بموضع الاساس فى ناحية فج غمدان فلما ارتفع بعث الله طائراً أخـــتطف المقـــرانة وطار بها وتبعه سام لينظر أين وقع ، وأرهقه الطائر ، حتى وقع عـــلى صرة غمدان فعلمه سام أن قد أمر بالبناء هناك فأسس غمدان واحتفر بئره وتسمى كرامه وهى سقاء إلى اليوم ولكنها اجاح [1] .

ويمزج الهمدانى بين كل هذا وبين ما جمعه من شعر فى غمدان بقصة قد نصدقه فيها لأنها على لسان أمية بن أبى الصلت ونجدها بنصها فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : [2]

جلبنا المدح تجفيه المطايـــا ... إلى أكوار أجمال ونـــــوق
نؤم بنا ابن ذى يزن زكفرى ... ذوات بطونها ألم الطريـــق
مغلغة مرابعها ترامـــــى ... إلى صنعاء من فج عميـــق
ولما واقعت صنعاء صـــارت ... بدار الملك والحسب العريق

وبعضها لا يمكن نسبته إلى قائله لأنه ينسبه على تبع مثلاً إذ يقول :

دارنا الدار ما ترام اهتمامـــا ... من عدد ودارنـــا خير دار
أن قحطان إذ بناها بناهـــا ... بين بريه وبين بحـــــار

(١) كتاب الأكليل للهمدانى .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة

ويمـــزج الهمـــدانى بين الأسطورة وبين جمع الشعر الذى قيل فى غمدان إلى الطريقة العربية فى نظمه ما نثروه كأنما ليحفظ ويبقى فيقول هو :

أرض تخيرها سام وأوطنهـــــا		واس غمدان فيها بعد ما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمهـــــا		ولا علا حجر من قبله حجـــرا
لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته		ولا الشتاء يَمَسها إذا قصـــــرا

وذكر الشعر هنا محاولة لاثبات حقيقة ما يقوله الهمدانى من أن القصر بناه سام ابن نوح فقد تعود العرب على الإيمان بأن ما جاء حوله شعر فهو صدق وحقيقى ، إلا أن الهمدانى أكتفى بالسرد للحدث الأسطورى ومن الواضح أنه صفاه من كل مـــا قـــد علـــق به من خيال وخلق أبداعى ... وكان اهتمامه بالشعر وبأقوال المخيمين أهم عنده من الوقوف الطويل عند الأسطورة ، وعند الهمدانى فى الإكليل مـــن هذا الكثير . إلا أن المزج بين الحدث الأسطورى والمكان الذى يدور حوله الحـــدث وبـــين جمال الابداع الفنى موجود فى أكثر من مكان آخر وعند أكثر من مؤلف آخر .

مـــن أروع الوقفات فى أدبنا العربى عند الاماكن ، ومن أروع التركيبات التى جمعـــت بين الأسطورة التى تدور حول المكان ، والأسطورة التى تبع من الطقوس الدينية ، والأسطورة التى تفسر وترتبط بالعادات والتقاليد تلك التى يرويها وهب ابن منبه فى كتابه التيجان حول أسماء الأماكن المشهورة حول مكـــــة مثل جبل أبى قبيس والمطابخ وموطن الموت والدار والجار .

فحـــول هذه الأماكن كلها وحول مكة قبل الإسلام وقبل قريش يدير وهب عمله الأسطورى المبدع ...

والدارس يحتار فى تسميه عمله أهو أسطورة أم حكاية شعبية أم خرافة ولكننا نحب أن نسميها قصة فنية بمعناها الكامل استغلت فيها الأصول الأسطورية كما استغلت فيها أصداء الحكايات الشعبية والخرافات ولكنها آخر الأمر بناء فنى متكامل لعب فيه أديب الأسطورة العربى دوره كاملا ...

يقول ابن هشام عن وهب بن منبه أنه قال :

" حدث لهيعة عن أبي مخنف رافعاً الخبر إلى إلياس بن مضر ، زعم أن إلياس قال سألت عمى أياد بن نزار بن معد بن عدنان ما أصل مالك ياعم ... ؟ فقال أبادة .

نعم يابنى مات أبى نزار وخلفنا ونحن أربعة أخوة أنا ومضر وربيعة وأنمار ، وكنت أكبر أخوتى فأستخلفنى عليهم ، وأمرنى أن لم يتراضوا فى القسمة أن يرجعوا إلى حكم أفعى نجران فذهبنا إليه فحكم لى بالخفْ والظلف ، وحكم لمضر بالقبة ، وحكم لربيعة بالفرس وحكم لانمار بالأرض ... فحلت علينا ازمة شديدة فأهلكت مالى فلم يبق لى غير قشرة ابقرة ، فكنت أكرى ظهورها وأعود بالكراء إلى أهلى نعيش عليه حتى أتت رفقة إلى الشام من أهل مكة وأهل تهامة فاكريت ظهور جمالى وخرجت معهم فباع الناس تجاراتهم واشتروا ثم أنى أكريت أبرك إلى المدينة فلما بلغناها التمست شيئاً أكرى فلم أجد ، وتواعد الناس على الرحيل بالغداة وبيننا وبين مكة عشرة مناهل فأمسيت مغموماً ، وبينما أنا كذلك سمعت صوتاً كالرعد وهو ينادى :

" أيها الناس من يحملنى إلى البلد الحرام وله وقر جملة درا وياقوتا وعقيانا ولا يجيبه أحد إذ اشتغل الناس عنه بأموالهم ، فقلت لنفسى : ومالى لا أعطيه جملاً فأن كان صادقاً كان فى ذلك الغنى ، وان كان كاذباً لم يضرنى ذلك .

فلم أزل أتبع الصوت حتى ظهر لى فإذا أنا بشيخ كالنخلة السحوق أعمى لحيته تناطح ركبته فراعنى ما رأيت من عظم جسمه ... وظللت أدنو منه وهو يصيح :

أيها الناس من يحملنى إلى البلد الحرام وله وقرجملة درا وياقوتا وعقبانا فقلت له :

يا شيخ عندى حاجتك . فقال :

ادن منى يا بنى .

قد نوت منه فوضع يده على منكبى فكأنى أحس يده على عاتقى كالجبل وقال لى :

أباد بن نزار أليس كذلك ... قلت متعجباً :

نعم ، من أنباك بأسمى ؟ قال :

علمك عندى عن أبى عن جدى أن أباد بن نزار هو الذى يرد الحارث ابن مضض الجرهمى إلى مكة بعد طول غربته ، فكم عندك من الجمال ؟ قلت :

عشرة ... قال :

يكفى ... قلت :

أمعك أحد غيرك ؟ قال :

لا ولكنى أركب الجمل يوماً وينفق ... قلت :

لقد أسمت لك وبالله لا أرجع عن قولى أبداً ... فقال :

فيمل بى عندك أبيت الليلة ...

وفى الصباح حملته على بعير وسرنا نهارنا أجمع على الأصيل فنفق جمل فحملته فى اليوم الثانى على غيره ، فسرنا ولم يزل ينفق لى جمل حتى بلغنا مكة وعلونا جبل المطابخ ... فقال لى :

يا بنى أحسن الجمل يجرنى جراً فهل وصلنا جبل المطابخ قلت :

نعم ... قال :

ايجاورك أحد سمع كلامى ؟ قلت :

لا فقد تقدمت عن قوم وتأخرت عن قوم ... قال :

أتدرى من أنا ؟ قلت :

لا ... قال :

أنا الحارث بن مضاض كنت ملكاً على مكة وما جاورها من الحجاز والتهائم إلى مدائـــن ثمود ، وكان الملك قبلى لأخى عمرو بن مضاض ، أفتدرى لم سمى هذا الجبل جبل المطابخ ؟ قلت :

كنا أهل التيجان وكنا نعلق التاج يوماً على رؤوسنا ويوماً على الرتاج بالبيت العتـــيق ... ولهذا كان أخى عمرو يجمع الجوهر ، ما يسمع عن أحد يملك منه طرفاً إلا الرسل فاشتراه منه ... ثم وجدت أن نزل مكة تاجراً إسرائيلى أتمى بدر ويواقيت فأمر عمرو بأن يأتوا به إليه ويحضر كل ما معه كما أمر أن يحضروا التاج من على رتاج الكعبة لنتقعنه وأن يزيدوا فيه من العقبان والدر والياقوت مما يحمله هـــذا الإسرائيلى ... غير أن الإسرائيلى غيب عن الملك أحسن ما لديه وعرضه على بعض أهل مكة ... وحين بلغ ذلك عمُرو سأله :

لم فعلـــت هـــذا ولم بعتنى نفاية ما عندك ، ألم أبلغك أمعك فى درك وياقوتك فأجاب الإسرائيلى .

نعمن أيها الملك ... فقال عمرو :

فما حملك على ما فعلت ... فقال الإسرائيلى .

هـــو مالى أيها الملك أبيع منه ما أحببت وأحبس منه ما أحببت ... وغضب الملـــك من قول الإسرائيلى وأمر أن ينزع ما معه من در ياقوت ويطرد إلى خارج مكـــــــة ...

واستمر الحارث بن مضاض يحكى لا ياد فذكر أن هذا الإسرائيلى انتقاماً لما وقـــع له ٠ سرق التاج من الكعْبة بعد أن قتل حارسه ثم فر به هارباً إلى فاران بن يعقـــوب ملك بنى إسرائيل الذى علقه على بيت المقدس ٠٠٠ مفتخراً بأنه حصل على التاج الذى كان يعلق على الكعبة ٠٠٠

لابد وأن عمرو قد جمع جيوشه لقتاله فاران بن يعقوب ٠٠٠

فقال الحارث :

بل أرسل إليه أول الأمر بطلب رد التاج وحقن الدم الذى حمله الإسرائيلى فى عنقه ٠٠٠

فقال أيـــــاد :

أو كان عمرو يظن أن فاران سيستجيب لطلبه ؟

لم يستجب فاران فعلاً ٠٠٠ وأبى أن يستمع إلى رسول عمرو الذى ذكر لـــه أن هذا التاج يعلق على البيت العتيق بمكة وأنه لم يجعل فيه أبداً غضباً ولا غلولا ثم ذكر الحارث لإياد كيف أن فاران ذكر لرسول عمرو أنه قد علق التاج على بيت المقدس ٠٠٠ فهم أهل كتاب وهم أعلم من عمرو وقومه بالله ٠٠٠ فما كان من عمـــرو إلا أن أمر أخاه الحارث أن يعد للأمر عدته – ذلك أنه صمم على القتال والانـــتقام مـــن ذلك الملك الإسرائيلى ٠٠٠ وأخذ الحارث يصف خروج الجيش لملاقاة فاران فقال :

خرجـــنا لهم نحن جرهم فى مائتى ألف وعملاق فى مائة ألف ، نصرنا الأحوص ابـــن قضاعة بن حمير فى خمسين ألفا ، واستنصر فاران بن يعقوب بقومه من الروم وكـــان صـــاحب أمر الروم شنيف بن هرقل فنصره فى شنيف بمائة الف من الروم وخـــرج فاران فى مائة ألف من بنى إسرائيل ونصرهم أحلافهم فى مائة الف ٠٠٠

فسار فاران بن يعقوب حتى نزل هذا الجبل ، وجاز عمرو الملك بجيوشه حتى نزلنا هذا الجبل ، جبل المطابخ أفتدرى لم سمى جبل المطابخ ...

فقال اياد : لا ....

قال الحارث : ...

لما نزل شنيف وفاران شرقى الجبل أوقدوا النيران وطبخوا، ونزلنا غربى الجبل فأوقدنا وطبخنا فسمى هذا الجبل جبل المطابخ ...

ثم سأل الحارث أياد :

هل تعرف أسم هذا الموضع الذى أنت فيه ؟ فقال أياد :

قعيقعان ... فسأله الحارث .

أفتدرى لم سمى قعيقعان ... فأجاب أياد : لا .

وهنا أخذ الحارث يشرح لإياد سبب هذه التسمية فقال :

أصبحنا وأصبحوا وتأخرنا لهم عن الجبل ونزلنا إلى هذا السهل ، فلما تساوت بنا وبهم الأرض قعقعنا عليهم بالحجف فسمى هذا الموضع باسم قعيقعان .

وحين أنتهى الحارث من ذلك سأله أياد :

أقترى ربوه يقال لها فاضحة ... فأجاب أياد ...

نعم ، ها هى تلك وأنا أراها ... فسأله الحارث :

فسمعت بيوم شنيف ... فقال أياد :

نعم ... فقال الحارث :

أتدرى لم سمى يوم شنيف ... فقال أياد :

لا ... حينئذ قال الحارث :

لما برز الجمع إلى الجمع برز لهم من جمعنا أخى عمرو الملك وقال لى ...

(أبواق وقعقعة سلاح وصهيل فرس)

ليبرز لى ملككـــــــــم وصاحب أمركم وأنا عمرو بن مضاض ملك مكة وجرهم ... فما كان من شنيف إلا أن قال :

فأنا ملك القوم وصاحب أمرهـــــــــم وأنا شنيف بن هرقل فماذا تريد يا عمرو ... فقال عمرو :

لم يمت الناس بينى وبينك يا شنيف بن هرقل فقال شنيف ...
قل وأسمع ...

فقال له عمرو :

فابرزنى فأن قتلتنى سمع لك من معى وأطاع لك ، ولك جميع السلاح والخف والظلف والحافر والذهب والفتنة ، وأن قتلتك سمع لى وأطاع جميع من كان معك ولى ما فيه مكن جميع ما ذكرت لك آخذه منهم أن قتلتك ... فقال شنيف :
أنصـــفت يا عمرو بن مضاض ... وأراد عمرو أن يستوثق من وعد شنيف فسأله ؟

أفتعاهدنى على ذلك يا ابن هرقل ؟ فقال شنيف :
أعاهدك ... فصاح عمرو به أن يبرز لـــه فخرج إليه شنيف وأخذ يتبارزان فاختلفت طعنتان بينهما فطعنه عمرو فقتله على ربوة فاضح ونزل إليه فجره برجله وفضـــحه وبذلـــك سميـــت تلك الربوة فاضح لما فضح عليها عمرو شنيفا ... وسكت الحارث لحظات ولكن أياد لم يمهله ... فسأله :

وماذا حدث فى هذا الأمر بعد هذا ؟ فقال الحارث :

أرســـل عمرو إلى فاران يطلب منه أن يعطيه ما تعاهد عليه من شنيف ... غير أن فاران رد على عمرو بأنه يعطيه ما عاهد عليه شنيف بملك مكة ومن أموال أهـــلها بعـــد أن أغلب عليها وأحوز أمرها وغضب عمرو لرد فاران وأرسل إليه يطلـــب للنزال فى اليوم التالى ... ولكن فاران لم يجب بل هجم بعسكره فقامت بينـــنا الحرب وتضارنا طويلاً فحطمناهم بالسيوف حطما ثم كانت عليهم الدائرة فقتلناهم قتلا ذريعاً فبذلك سمى يوم شنيف ، وأدرك الملك عمرو فاران بن يعقوب على تل فقتله فسمى ذلك التل فاران ... وقد أنشد عمرو أبياتا قال فيها :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها ... تناولت منهـــــا حاجتى بيمينى
قتلت شنيفاً ثم فاران بعـــــده ... وفان على الآيـــــات غير أمين
فللموت خير من مذلة حافـــل ... يضنى وبها حنا لغير قريـــــــن

ثم مضى فى أثرهم إلى بيت المقدس فأذعنوا له بالطاعة وأتوه بتاج الملك فأخذه .

******

(٤)

وسكت الحارث هنيهة يسترد أنفاسه اللاهثة ... وحين رأى ما يرتسم على وجه أياد من شوق ولهفة لسماع حكايته عاد يستأنف الحديث فقال :

استقر عمرو أخى فى بيت المقدس يحكم بنى إسرائيل ويوسهم ، وفوجئ يوما بامـــرأة جميلة يقال لها برة ابنه سمعون ، لم يكن مثلها فى الجمال فى وقتها من سبط يوســـف بن يعقوب أرسلوها إليه تكلمه فى أمر نزل بها وقد لبست حليها وتزينت فلما رآها عمرو الملك فتن بها فتزوجها وكان ذلك مكراً منهم لحارث ... وحين احســـت بـــره أنهـــا تمكنت من قلب عمرو ؟ طلبت منه أن يرضيها كما أرضته فيستجيب لرغبتها فسأل اياد الحارث :

وماذا كانت رغبتها ... ؟

فقال الحارث :

إن يرحل عمرو عن قومها ولا يضرهم .

أو قد استجاب عمرو لرغبتها .

فقال الحارث :

ورفع عنهم وأمرنا بالسير فى اتجاه مكة وقد أخذ معه مائة رجل من أكابر بنى إســـرائيل رهائن ثم نزل أجياد ولكن أتدرى لم سميت هذه البقعة أجياد ... فقال أيـــــاد :

لا ... لا أعرف .... فقال الحارث :

لما نزلنا فى أجياد عدت برة بنت شمعون إلى حسكة من حديد فسمتها ثم القتها فى فراش زوجها الملك عمرو عند منامه بالليل وأعدت نجبا ورجالاً يردونها إلى بيت المقدس ... فسأل أياد فى اشفاق :

قتلت زوجها ؟ فقال الحارث :

لما ألقى عمرو الملك نفسه فى فراشه شجته الحسكة ودخله السم فمات وهربت وهرب معها المائة رجل ... فسأل أياد :

وتركتموها تفر ... فقال الحارث :

أخذت فرسان جرهم وعملان وبلغت تل فاران وليس لهم عنه محيد ، وحتى أتوا فأخذهم وأخذها ورجعت بهم وبها إلى مكة فأصيبت الملك عمرو وقد تناثرت مفاصله من السم فحفرت له ضريحاً وواريته ثم أمرت بالمائة رجل فقدموا إلى السيف فقال المتقدم الأول وكان تغيب بنى إسرائيل للسياف ...

احتفظ ، لا ترفع ولا تخفض وانزل سبقك على الاجياد ... ومن أجل هذا سمى ذلك الموضع بالاجياد ...

ثم وليت الملكة بمكة وتوجت ورجعت إلى بنى إسرائيل والروم فهزمهم ، فقال أياد ... ولكنك لم تذكر لى ما فعلته ببرة ...

أخذت برة لا قتلها فقالت لى أنها خدعت ، وما فعلت من كل هذا شيئاً وأنما فعل هذا الفعل تغيب بنى إسرائيل ذلك الذى قدمته للسيف أول من قدمت .

وحين سألتها أن تقص لى الأمر قالت أن تغيب بنى إسرائيل خدعها حتى أدخلته فخدع الملك وفعل فعلته الشنعاء أما هى فلا علم لها بالأمر ... ولكنى حين كذبتها قالت ....

" وكـــيف تتهمنى بقتله وأنا مثقلة منه " ، وأدعت أن فى بطنها جنيناً ... فأمرت باستدعاء القوابل ليتأكدوا من صدق دعواها ...

فسأل أياد فى لهفة :

وهل كانت حقاً حاملاً منه ؟ فقال الحارث :

نعم يا بنى ... وكان أخى عمرو قد منع الولد غير بنتين كانتا له ، فلما قبل لى أنهـــا حـــامل غلبت على الشفقة وأحبط بى ، فأدخلتها القصر ووضعت عليها حرســـاً حتى وضعت حملها فأتت ولدا سميته مضاضاً بأسم أبى جده ، أما هى فقد أخـــذت أدبر أمرى فى قتلها ولكنى قلت لنفسى أن قتلتها لا آمن على نفسى من ولدهـــا ، ولكن ... ثم سكت الحارث واخذ يتلفت يمينه ويسره ، وأخيراً سأل أياد ...

والآن يا بنى أين نحن ؟

فقال أيـــــاد :

برياض الفرقد ... أيها الشيخ الجليل ... فقال الحارث :

بلغـــنا مكـــة ، وقد اسديت إلى معروفاً فوجب على الشكر ، وسأزجين لك نصيحة تنجيك ، قل لى يا بنى ، هل ولد فى بنى مصر مولود أسمه محمد ...

فقال أيـــــاد :

لا ...

قال الحارث :

سيولد ويأتي حينه ويعلو دينه ، ويقبل أوانه ويشرف زمانه ، فان أدركته فصدق وحقق وقبل الشامة التي بين كتفيه ...

هذا النوع من أدب الأسطورة الذى يدور حول المكان بشكل ثروة حقيقية للأدب الأسطورى العربي ولكننا نلمح فيه أثر العصر الذى ألف فيه . فأديب الأسطورة العربي ، ليس هو الأديب الأصلي القديم الذى نسج الأسطورة حول المكان ، ولكنه أديب متأخر زمنا أخذ ما قدمه أديب الأسطورة العربي القديم من مادة وأعاد صياغتها من جديد ، وراعى حسن صاغها عصره وتقاليده وتعاليمه ... ومن هنا كان ربط الاماكن بأحداث أثرت تأثيراً مباشراً أو غير مباشر مع بيئة البعثة المحمدية ، ومن هنا أيضاً كان ربط الأحداث المباشر أو غير المباشر بالتمهيد لظهور الإسلام وظهور نبي الإسلام . فأديب الأسطورة يحيل مؤمناً قديماً ببني يثرب تمهيداً ينهى جوله الشيخ العزيز الجرهمي التائه الحارث بن مضاض بالتنبيه بظهور الرسول وباسمه وسماته ودعوته .

وهذا اللون من العمل الأدبي الأسطورى عند الأديب العربي يمتزج فيه عاملان هامان أولهما الحفاظ على جوهر الأسطورة العربي وما تحمل من عطر الأحداث القديمة والثاني هو ربط هذا كله بالروح الإسلامية الجديدة بحيث ثبتت الأسطورة ملامح وجدانية إسلامية فى قلوب المتلقين من المسلمين ...

******

(٥)

إلا أن الأمـــر لم يقتصر على هذا المجال وحده فحول المكان وأسطورة المكان عاشت حكايات أخرى لعب فيها خيال القاص العربى الكثير • منها قصص الحب والغـــرام ، وقصص الوفاء العربى والبذل العربى • وكلها حكايات تعكس طبيعة البيئة العربية المرتبطة بالمعتقدات والعقائد من ناحية ، والمرتبطة بالخلق الذى حددته البيـــئة مـــن ناحية أخرى ، والمرتبطة بما حول البيئة من أشياء تبنتها الوثنية والدين القديم .

فالأشـــهر الحرم مثلاً ••• من متبقيات الجاهلية والمعتقدات القديمة ، والماء رمـــز الحياة والبقاء عند العربى الجاهل ، والانفة والكبرياء ••• سمة العربى التى ورثهـــا بحكم طبيعة الحياة فى الجزيرة • والعفة والنقاء ••• سمة أخرى أرتبطت بتقاليد الفروسية التى خلفتها البيئة نفسها .

ومـــن جمـــاع هذا كله وحول المكان وتفسير أسماء ما احاط بمكة من أمكنة نسجت حكاية مضاض ••• كتبها أديب الأسطورة الرعبى ليسجل قصته الحب العذرى قبل مجنون ليلى بل وقبل روميو وجوليت ، بحيث يمكن أن تعد واحدة من أخطـــر ما حفل به الأدب العالمى نفسه من حكايات الحب العفيف ••• ولكنه نســـجها مرتبطا بكل ما ارتبط به كاتب الأسطورة العربى من حيث المكان ••• والخلق ••• والمعتقدات .

وحكاية مضاض يمكننا أن نسميها من أساطير العرب التى أرتبطت بالمكان فهى الســـر فى تســـمية كل مكان من الأمكنة التى يطوف بها الحارث الجرهمى فى شبة تقديس مع قائده فى رحلة العودة مع أياد ••• وقد وردت فى التيجان لوهب بن منبه ••• ولكنها من الرواية الإسلامية والصياغة المعدلة لابن هشام •••

وتبدأ قصة مضاد بعودتنا ثابتة إلى الحارث التائة بعد أن يصل إلى مكة مع أياد يتلمس معه موضعاً يبنى الكاتب حوله هذه الأسطورة الغريبة الرائعة ... أما اسم هذا الموضع فهو الزيتونتين . وقد طلب الحارث من أياد أن يطوف بهما ويقوده إلى صـــخرة عظيمة مربعة شحونة ... تضع بينهما ... وهناك أخذ الحارث ينشد باكيا ...

أموت قعبدا والعيـــون كثيرة ولكنها بخـــلا عليّ جوامـــد
غادت إلى الأيـــام حتى تركتنى كمثل حسام أفردته القلائـــد
ونادى بى الأدنى وشمت بى الورى ويا من كبدى الكاشحو إلا باعد

فساله أياد :

ما كل هذا الحديث عن الموت ياشيخ ؟ فقال الحارث :

أن أســـم هـــذا الموضع يا بنى موضع الموت ... تدرى لم سمى هذا الموضع موطـــن الموت ... ولم يكن أياد ليعرف سر هذه التسمية كما لم يكن يعرف سر تســـمية بقية الأماكن التى ذكرها الحارث وهى جبل قبيس والدا والجار والدابة . فأخذ الحارث الجرهمى يحكى ...

قال الحارث :

يـــابنى لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك لم يكن بمكة وما والاها أجمل منه وكان من بنات عمه من بيت الملك فتاة تسمى ميا بنت مهليل بن عامر ، وكانت معه فى نسق واحد ، وكانت أجمل من راته العيون ، ففتن بها وفتنت به ... وشب معها وشبت معه فى حى واحد ... وصان منزره عنها عفة ونقاء ... وخشى أن يشـــتهر أمرهما فتكون الفضيحة ... ولم يكن أمامها من سبيل إلا أن يقصدا

على يشكوان ما نزل بهما من الهوى والشوق ... وما أن سمعت حكايتهما حتى أرسلت إلى مهليل بن عامر ابن عمى وأعلمته بما كان بينهما ... فقال مهليل:

أيها الملك أنت وليهما أفعل بهما برأيك ... وأشرت عليه بتزويجهما ... ولكن الشهر الأصم رجب كان قد هجم علينا ونحن لا نحدث فيه حدثاً غير العمرة والطواف ورأيت أن نتمهل حتى ينصرف رجب ونزوجهما ، وصبر العاشقان حتى ينقضى رجب وكتما ما بينهما من وله ... وامتنعا عن اللقاء ... وما كان يرى أحدهما الآخر إلا فى أثناء الطواف بالكعبة ... ولكن حدث أن رأى قبيس ابن سراج الجرهمى وهو من رهط حقير فى جرهم ميا فهويا وهى لا تعلم وراقب من هواها قلبه ، فأحس بما بينها وبين مضاض من حب وعشق لا تخطئه عين الحاسد والشامت ، وحين أعتمر مضاض وطاف وبلغ ذلك ميا أقبلت تعتمر وتطوف متنكرة غيرة على مضاض أن يتعرض له متعرض .

ولم يكن مضاض يعلم بمكانها أنما كان يومها بطوف خالى الذهن متفرغ القلب لطوافه وعمرته ، وبلغ أمر اعتمار ميا إلى قبيس فخرج للطواف .

وما كان يريد سوى أن يقضى لبائن بالنظر إلى ميا وهى تطوف فكانت ميا تطوف وتراعى أحوال مضاض وترقب خطواته ومضاض لا يعلم بذلك ، وكان قبيس فى أثر ميا وميا لا تعلم بذلك ... وكان من بين الحجيج رقبة بنت البهلول الجرهمى وهى واحدة من بنات بيت الملك .

كانت رقبة تطوف وكان اليوم قائظاً فعطشت عطشاً شديداً خافت على نفسها الموت منه ، واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم ، فلما أبصرت مضاضا نادت به لشبيبته وصغر سنه ... ورجته أن يسقيها جرعة ماء وأسرع مضاض يحضر الماء لرقبة ... وحين ناولها إياه شاهدتهما ميا فأشتعل قلبها غيرة ، فسقطت مغشياً عليها وجعلت ترعد ولا تدرى ما هى فيه ... وقيل

للـــناس يومهـــا أنها مرضت وأصابتها ضربة الشمس فى هذا اليوم القائظ ... وحين أدركت نفسها قامت ولكنها لم تستطع الطواف وولت إلي مترلها ولقبها أبوها المهليل بن عامر وهى فى هذه الحالة فأنفطر لها قلبه ... وحين أستوضحها الأمر لم تخـــف عـــنه شيئاً ... وقد صورت لها وساوس الغيرة أن مضاضاً قذف الهوى خلـــف النوى بعد أن استجاب قلبها لقلبـــــه ... وأنه يدل حباً بحب وخطراً بخطر ... وكبر الأمر فى عين أبيها فقال لها :

لم يبلغ والله خطر البهلول بن عامر ولا رقبة بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر ثم صاح فى صوت غاضب : لا ورب الكعبة ما يكون ذلك أبداً ...

أما ميا فقد أقسمت أنها لن تقيم بموضع يقيم فيه مضاض بن عمرو أبداً ... وعزمـــت عـــلى الرحيل على أخوالها جسرين قبن بن حمير بأمج ذات الضال .. وأغتـــنم قبـــيس بن سراج هذه الفرصة ... ذاك الوغد ، واتاها وأنشأ يبس لها أخـــبارا ليفرق بينها وبين مضاض لما رأى من غيرتها حين سقطت بالطواف فعمل شعراً على لسان مضاض وشعراً على لسان رقبة وذكر لها أنه رأى مضاضاً واضعاً كفـــيه عـــلى قرون رقبة بنت البهلول فى الطواف وهو يدافع عنها أهل الطواف سائحاً وبارحاً ثم أستسقته ماءً فناولها سقاء بيده ، فشربت وناولته فأنشأ مضاض يقول :

رقبة قلبى قد تباين صدعـــــــه ... وللحب منى شاهد ودليـــــل
رأيت الهوى يهوى ولوصول واصل ... فهل لك أن يلقى الخليل خليـــل

وأستمر قبيس ينفث سمه فزعم أن رقبة أجابته على شعره ...

أصون الهوى والطرف منى كا تم ... ولا يعلمون الناس إذ ذاك مادائى
سوى أننى قد فزت منك بنظـــرة ... تجرعت عذب الحب منه مع الماء

فالتمستها حمى من قول قبيس ، ووجعلت تقبل بين نيام الحى مرة وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه ... وأشفق عليها أبوها ... وحاول أن يهدأ من خواطرها ولكن نيران الغيرة كانت قد استعدت فى قلبها فلم تطفىء منها كلمات أبيها ولم يكن هناك بد من الرحيل وأطاعها المهليل بن عامر على ما تريد فقد أبلغة رجل من أهل الحى بما حدث وبما قاله قبيس وبما أنتوت عليه ميا ، فركب فرسه وأخذ سيفه وخرج يريد قتل قبيس ... ولكن قبيساً أنذر بخروج مضاض فأسرع يخرج من مكة هارباً فى البيداء ولم يجد مضاض من قبيس أثراً وأعجزه هرباً ، ورجع على ميا وأصاب أهل الحى يحتملون وأصاب ميا راكبة على نجيب فى هودجها وقصدها وحاول أن يجلى لها حقيقة الأمر ولكنها تجهمته وزحفت غضبى ... وتمادى الحى للرحلة وأفترق الحى من سفح الجبل فسمى الجبل بجبل أبى قبيس ، ذلك أن دس قبيس بن سراج هو الذى فرق جمعهم فى هذا المكان .. أما مضاض فأنه لما ظعن الحى وأرتحل ، رجع حزينا كاسفاً فبدل زيه وركب ناقته وخرج فى طلب ميا وحيها الذين ارتحلوا إليه ... وكان لمضاض خليلان من بنى عامر هما عمرو وعامر فركبا فى أثره حتى لحقاه ... وحاولا ان يثنياه عن رحلته التى رأيسا إلا فائدة ترجى من ورائها وقد ، عابا عليه أنه خلع تاج الملك يطلب الهوى ... ولكنه لم يستمع إليهما وأصر على رحيله إلى أمج ذات الضال يرقب ميا ويراقب أخبارها ، ويطوف حول ديارها من حى إلى حى على قلبه يبلغ قلبها صدق وجيبه ...

وظل هكذا يطوف بالحى ولا أحد يعلم من هو ، وليس حوله من يراعيه ويهتم بشأنه سوى خليليه عمرو وعامر ... وحدث أن جاء عمرو يوماً وأخبره أن القوم يريدون الرحيل إلى خريف نجد وأن مهليل بن عامر وأهله يريد الرحيل إلى مكة ... وحين سمع مضاض هذا أعلن أنه سيسير وراءهم حتى يلقاهم فى

الطريق ، وأضطر صاحباه أن يرافقاه بعد فشلهما فى اقناعه بالعودة إلى مكة دون وقوف .

وسار مضاض مع صاحبيه حتى التقى رحلهم برحلى المهليل بن عامر ، وغلب فرطاً لصبابة على مضاض فتعرض لميا فى الطريق، يرجو أن تتقى الله فلا تغدر به وينشدها هذه الأبيات ...

علام قبست النار يا أم غالب ... بنار قبيس حين هاجتك ناره
على كبد حرى وأنت عليمة ... بغيب رفيق لا يبين ضمارة
سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى ... عليه وهجرانا وحبك جاره

وترد هى عليه بأبيات أخرى وقد رجته أن يبتعد عنها ولا يتعرض لها هكذا أمام القوم ... وقالت له :

أبى حسبى من أن يهان وأن يكن ... وقد قدحت فيه العداة ذليلاً
فأبديتنى للناس حتى نصبتنى ... وأبديت من نفسى إليك خليلاً
فلما تساوى الحب والأمر مقبل ... عدلت ولم تظهر على جميلاً
رأيت مكانى حين وليت معرضاً ... إلى حسب البهلول كان قليلاً

حينئذ رجع مضاض على صاحبيه كسيف البال ينشد هذين البيتين :

تصد بلا جرم على بوجهها ... وتبعدنى لما أردت ألتقربا
كأنى أنادى حية حين أقبلت ... سفاها فما تزداد إلا تغضيبا

وسكت الحارث لحظات راح بعدها يقول لأياد ... ومن هنا سمى هذا الموضع يا بنى بالجار وأفاق أياد حين سمع عبارة الحارث الأخيرة ... فقد كان يعيش بكل وجدانه ومشاعره مع أحداث القصة التى يحكيها الحارث ... ونظر إليه وكأنه لم يدرك ما كان يرمى إليه الحارث ... فقد نسى فى عجزه الأحداث ذلك البيت الذى أنشده مضاض لميا حين لحق بها فى الطريق وقال :

سألتك بالرحمن لا تجمعي هوى عليه وهجرانا وحبك جـــاره

ولكن الشيخ ذكره بالبيت ليوضح له سر تسميه هذا الموضع بالجار ... ثم عاد يستأنف حديثة عن مضاض وفى فقال :

فمضـــى مضـــاض متجهاً إلى مكة ، فغلب عليه ورجا منها عطفاً فتعرض لها بموضع آخر فقال لها ...

علام قبست النار يا أم غـــالب بنار قبيس حين هاجتك نـــاره
على كبد حرى وأنت عليمـــة بغيب رفيق لا يبين ضمـــاره
سألتك بالرحمن لا تجمعي هوى عليه وهجرانا وحبك جـــاره
فأن لم يكن وصل فلفظ مكانه إليه وإلا موطن المـــوت داره

ولكن ميا تقسم برب الكعبة إلا تلقاه بها أبداً ...

وهنا قال أياد للحارث :

لعل بيت مضاض الأخير هو سر تسمية هذا الموضع باسم الدار .

فقال الحارث :

تمامـــا يـــا بـــنى ... هذا صحيـــح ... أما مضاض فولى مبتئساً على صاحبيه ... وقد عزم على أمر خطير .

لقـــد ذكر لصاحبيه أن ميا تجهمته إلا لسقيا رقية الماء ... وليس أمامه من ســـبيل للتفكير عن هذا إلا الامتناع عن شرب الماء ... وأقسم أمام صاحبيه إلا يشـــربه بعد اليوم أبداً ... ويحاول صاحباه أن يثنياه عن عزمه هذا ويبينان لـــه قسوة هذا القرار وهم فى هذا القيظ الشديد ... ولا معنى هذا إلا الموت ... ولكن مضاضاً كان قد أقسم والله ما أشرب بعدها ماء أبداً ...

ما هذا يا مضاض أتحرم على نفسك الماء ونحن هذا القيظ ...

ما تجهمتنى ميا إلا لقيامى رقية الماء ... فما والله أشربه بعد اليوم أبداً ...

وجال مضاض حتى غلب عليه العطش وأنصدع قلبه فى صدره لما خامره من اليأس وما بلغ به من العطش حتى بلغ هذا الموضع فغشية الموت فأناخ ناقته وارتمى فوق الأرض ، فأخذ عمرو رأسه فى حجره ... وقال له فى حزن بالغ :

قصفك الدهر يا مضاض ... ويرد عليه مضاض فى صوت واهن .

قصفنى قبيس يا عمرو ... أجل ... قبيس ... ويصرخ عمرو :

مضاض .. مضاض .. اسامع أنت لى .. ويجيب مضاض فى صوت خافت متقطع لا يكاد يبين :

علام قبست النار يا أم غالـــب ... بنار قبيس حين هاجتك نـــاره

على كبد حرى وأنت عليمـــة ... بغيب رفيق لا يبين ضمـــاره

سألتك بالرحمن لا تجمعى هـدى ... عليه وهجرانا وحبك جـــاره

فأن لم يكن وصل فلفظ مكانـــه ... إليه وإلا موطن المـــوت داره

خليلى هذا موطن الموت فاندبـا ... مضاض بن عمروحين شط مزاره

صريع هوى نائى المحلة نـــازح ... سجا بعد أشراق الصباح نهـاره

عفيف عن الفحشاء فى كل حالـة ... إذا ما أبيح اللهو يومـــا إزاره

فيا شجر الزيتون ويلاك فاندبـــا ... على هالك ثوب الضريح شعاره

ثم مات ... فأصبته ميتاً ومعه صاحباه فحفرت له ضريحاً فى هذاه الصخرة وواريـته وجعلت عليه هذه الصخرة العظيمة ، وهذا قبره تحتها ... وسمى هذا الموطن بموطن الموت ... وأدار الشيخ وجهه يخفى عن أياد بعض عبرات ذرفتها

عيـــناه – حين كفت دموعه – اطرق برأسه ومضى ساهما ... غير أن أياد وقد غلبه الشوق لسماع بقية القصة سأله :

ولكن أيها الشيخ ماذا كان من أمر ميـــا ...

فالتفت إليه الحارث قائـــلاً :

حين قدم مهليل إلى مكة كان منزله إلى جوار البهلول فلقيت ميا بنت مهليل رقية بنت البهلول ، وطال بهما الحديث وميا تبدى أعراضاً وأزدراء إلى أن سألتها يومـــاً رقية عما كان من شأنها ومضاض ... فتخبرها ميا بأن ما بينهما قد انعدم بسبب ما كان بينه وبين رقية ... وتعلو الدهشة وجه رقية وتستوضح ميا الخبر وتكشـــف لهـــا ميا القصة كلها منذ سقاها مضاض فى الطواف والشعر الذى دار بيـــنهما ... فتنكر رقية الأمر كله وتوضح لها الحقيقة كاملة ... وتبين لها أن قبيســـاً لـــيس إلا واشياً سعى بينهما فأوقع ودمر ... وحين تدرك الحقيقة تحس بالـــندم يأكل قلبها لأنها رفضت أن تصغى إليه ... وتستمع له ... وتقوم من فورهـــا تبحث عنه وتسأل وتلتمس أخباره ... ولكنها تفاجأ بالكارثة تهز كيانها وتعتصر قلبها ... وتسود الدنيا أما عينها ... لقد مات مضاض فلتمت هى الأخـــرى نفس ميتته وامتنعت عن شرب الماء ... وظلت يومين وليلتين عطشى ولا أحـــد يعلم بها سوى جاريتها سلمى ، فلما بلغت الربوة سقطت وبنظرة واهنة وصـــوت متحشرج واهن أوصت سلمى بأن تبلغ إياها المهليل برغبتها فى دفنها بالدوحتين بجوار مضاض وأنشدت هذه الأبيات :

يقولون ميا أسرعت بفراقهـــا ... فمات مضاض والهوى غير نادم

فياليت أنى مت من قبل موتـــه ... بطيب الهوى قبل الردى المتفاقم

لقد مت يوم الماء موتاً أمر مـــن ... سمام الافاعى فى نقيع العلاقـــم

فهل هو إلا الروح بالروح أسوة ... وها هى نفسى ارتقت فى الحيازم

ثم لم تلبث يسيراً حتى ماتت وبلغت سلمى أباها فأعلمته فدفنها فى الدوحتين وها هنا يا أياد قبرها ...

فى هذه الأسطورة نجد التأزم الدرامى فى الحدث القصصى قيس بما لدى كاتب الأسطورة العربية من حس درامى حاد كان يمكن أن يكون بالفعل مقدمة لظهور الأعمال الدرامية العربية العاملة وإلى حوار الحس الدرامى هناك الحوار المتقن السريع الذى يعبر عن شخصية صاحبه من واقعة ومن واقع الشخصية النفسى كذلك ... وإلى حوار هذا كله ، ويدخل تشابك الأحداث التى تبدأ من مقدمة هادئة طبيعية ، ثم تتعقد لتصل إلى ذروة الأزمة .

واللمحة الأساسية عند القاص العربى هنا هى الالتزام بالجو النفسى العربى للشخصيات ثم بالجواهر فى الخالص للأحداث ... فالحب عذرى عفيف واضح معلن لاخفاء فيه ، لأنه أن مسه الخفاء لفظه المجتمع العربى وخفاه ... والحاجز بين الحبيبين ... الأشهر الحرم ... تمنع زواجهما وتمنه لقاءهما إلا خلسة وأثناء الطواف وهو تقليد عربى موروث عن العبادات العربية القديمة .. ومع الهجر والخفاء قسيط تختص به الجزيرة العربية وعطش يمثل سمة أساسية من سمات الحياة العربية وما يهددها ، بل هو التهديد الدائم للحياة فى الجزيرة القاحلة الصحراوية .

والغضب من ميا ومن أبيها ، عقبة عربية تلعب فيها الآنفة وإحساس الكرامة الحاد كما يلعب فيها أيضاً دوره الخطير الاعتزاز بالمنزلة والشرف والأرومة ... وايا كان الرأى فى خلو الأدب العربى القديم من العمل الدرامى فأن هذه الحكاية المرتبطة بأسطورة المكان تعلن عن نفسها وتؤكد وجود الحس الدرامى عند القاص العربى القديم بشكل متكامل ...

إلا أن العمـــل الأدبي هـــنا يرتبط بالتقاليد العربية والعادات العربية كما أنه يرتبط بالمفاهيم العربية القديمة والخلق العربي الذى ربته البيئة وأدانته للعطش الذى هـــو رمز الخوف الكامل عند العربي الصحراوى تؤكد الارتباط العضوى الكامل بين النص وبيئته من كل جوانبها ...

وإذا كانـــت الأسطورة النابعة من النسج حول المكان استطاعت أن تنتج لنا هذا العمل المتكامل فنياً ودرامياً فليس لنا إلا أن نقول أن هناك شيئاً كبيراً قد أغفل فى تاريخ الأدب العربي من إنتاج أديب الأسطورة عند العرب ...

*****

(٦)

وبعض الأساطير التى ارتبطت بالمكان من الواضح أنها بنت نسيجها الروائى والابداعى على المكان نفسه لجعل التسمية ذات دلالة ، ولإضفاء عنصر أسطورى على الاسم الموجود أصلاً بغلف اسم المكان والمكان نفسه بغلالة حلوة من الخيال البكر والعاطفة الراقبة وذلك كما اتضح لنا من حكاية مضاض وميا وارتباطهما بأسماء الأماكن حول مكة ... وبعضها يستغل قداسة المكان نفسه ليفرض عليه خيالاً فجا بدائياً يحتاج إلى تمحيص ليستطيع الدارس أن يلتمس الآثار الحقيقية للفكر البدائى فيه ...

ونحن يعنينا بقدر كبير الاهتمام بالفكر البدائى لأنه المدخل إلى أديب الأسطورة عند العرب . كما أنه يعنينا أيضاً لأن أدب الأسطورة العربى هو الدليل الوحيد الهادى لنا لتكوين علم الأساطير والدراسات الشعبية العربية . ولذلك فلا بأس قبل الانتقال على نوع آخر من أنواع الأسطورة والحكاية الشعبية العربية من الوقوف وقفة سريعة عند هذا النوع من الأعمال المرتبطة بذهن مبدع البذرة الأسطورية البدائى . ومكة والمدينة والكعبة فى الغالب الأعم هى محور اهتمام هذا اللون من الابداع الأسطورى وارتباط هذه المدن بالإسلام جعل من الممكن للعقل القصصى وللخيال العطاء أن يجد المبرر لينطلق كيف شاء ... وابرز صورة من صور هذا الانطلاق ما امتلأ به كتاب الثعلبى قصص الأنبياء من حكايات وأساطير.

وعلى الرغم من التهذيب الشديد للعمل الأسطورى الذى نجده عند ابن هشام فى السيرة أو فى كتاب التيجان أو فى مجالس عبيد بن شربة مع معاوية فى كتاب أخبار ملوك اليمن فأننا نجد الصورة العكسية تماماً فى هذا المصنَف الذى ينطلق من حيث تنبع القصة الأسطورية بكل بدائيتها وفجاجتها ...

فحول مكة وظهورها ، يربط الثعلبى كل قصة الخلق فيقول :

" خلــق الله جوهــرة قبل أن يخلق السماء والأرض ، فصارت ماء ، ثم نظر سبحانه على الماء فأربد وأزبد وغلى ، وارتفع منه زبد ودخان وبخار ، وخلق من الــزبد الأرض وخلــق من الدخان السماء ، فأول ما ظهر من الأرض مكة ولذا سميت أم القرى " [1] .

ودارس الأســاطير يستطيع أن يجد في هذا السرد بقايا لأساطير التفسير التي تحــاول أن تعلــل للظواهر أو أن تربط بينها كظواهر طبية وبين القوى الفنية التي تحركها ربطا فيه السذاجة والبدائية في الخيال والفكر معاً ... فالبخر والمطر والماء قضية تشغله ولا يجد لها تفسيراً سوى مسألة الجوهرة والماء ونظرة الله على الماء .

والسؤال هل هنا إشارة على عبادة الشمس ، وهل هنا ربط بالديانة .

الوثنــية القديمــة وبعــبادات الجزيرة ؟ ... بل هل هناك ربط بالعبادات الفرعونــية القديمــة التي تدور حول آتون قرص الشمس ورع الإله الأعلى ورب الأرباب عند الفراعنة وهو اسم الشمس ...

وليس هذا بافتراض بعيد فان تداخل العبادات الأولى أمر مقرر بالنسبة لدارس الميثولوجــيا واقــتراب الرموز والأفكار أمر آخر تسلم به هذه الدراسات ، ولعل أوضحها في نفس الكتاب كتاب الثعلبي قصص الأنبياء ما هو تأثر مباشر بالفســتا أو الكتاب المقدس عند الموجوس . فيقول عن خلق الله للعالم :

" نــزل جــبريل علــيه السلام ليأخذ حفنة من الأرض ليخلق الله منها آدم فاستعاذت بالله فرحمها ولم يأخذ منها ... ثم أرسل الله ميكائيل ليأخذ من الأرض حفــنة مــن التراب يخلق منها آدم فاستعاذت بالله فرحمها أيضاً ولم يأخذ منها ، ثم أرســل الله عزرائيل ملك الموت فأخذ قبضة من زواياها الأربع قبض من كل زاوية

---

[1] قصص الأنبيــاء للثعلبي .

قبضـــتين من أديمها الأعلى ومن سحنتها وطينها ، من أحمرها ومن أسودها ومن سهلها ومزقها " .

ويفسر الثعلبي كل هذه القبضات المتناقضة بقوله :

" فكذلـــك كلـــنا من ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والكالح والجميل والقبيح ... "

ويعود الثعلبي إلى قصته الغريبة فيقول :

" ســـعد ملك الموت بأن نجح في الحصول على التراب الذي سيصنع منه الله ســـبحانه آدم عليه السلام ، فأمره الله أن يجعلها أي التراب طينا ويخمرها فعجنها الماء المر والعذب والملح حتى جعلها طيناً وخمرها فلذلك اختلفت أخلاق أبناء آدم واختلفت طباع ذريته " .

إلى هنا وراى الأفستا جلي واضح ، ولكن أديب الأسطورة البدائي العربي يجد نفسه مضطراً إلى الربط بما يجعل ما كتبه مرتبطاً بالإسلام ومقدساته أما عن عقيدة ســـاذجة وأمـــا عن حس فني مرهف اختلطت فيه القراءات وأمتزجت ثم ارتبطت بوجدان ديني قوي أشبه ما يكون بوجدان العوام المندفع المتحمس . ولذا سرعان ما نجد الثعلبي يقوم بهذا الربط فيقول :

" أمـــر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام أن يأتيه بقبضة بيضاء هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمداً ، فأخذ جبريل قبضة من موضع قبر النبي عجنت وغمست بأنهار الجنة فقطر منها ألف قطرة وألفاً وعشرين الف قطرة فخلق الله تعالى من كل قطرة نبياً ، فكل الأنبياء عليهم السلام من نور محمد عليه أفضل السلام قد خلقوا ... " .

وكأنما أراد الثعلبي أن يربط بين طينة أبناء آدم ونور الأنبياء ربطاً مادياً بعكس تصـــوره للفرق بين الناس بأخطائهم وهناتهم وبين الأنبياء وعلى رأسهم محمد عليه

السلام وهدايتهم للناس وتفجيرهم للنور فى قلوبهم فلم يجد إلا هذا التقابل المادى الفطرى الساذج ...

وعن هذا الارتباط بين الديانات القديمة فى العالم القديم ، وتبادلها برموزها بين شعوب هذا العالم المختلفة يقول ويليف نيلسون فى الفصل الذى كتبه بعنوان الديانة العربية القديمة ، وهو واحد من فصول الكتاب القيم التاريخ العربى القديم.

" من الهة العرب المعروفة اللات واورتلت والعزى وعنتر وهبل والمقة الذى ظل نحو ألف سنة كبير الإله فى اليمن . ويرى هيرددوت أن أورتلت هو (ديونيسوس) الذى كان إله الشمس عند الساميين فى الشمال وغله الخصب عند الإغريق ، كما يرى أن اللات هى أورانيا آلهة المشترى ، فى حين أن عنتر هى عشتر أو عشتار أو عشتروت أو الزهرة ، ومن بعد هيرودوت جماعة منها استرابون جعلت أورانوس وزيوس إلهين عربيين أو ساميين جنوبيين " [1] .

ومن هنا كان ما نراه من اختلاط بين المفاهيم الوثنية فى كتابات أديب الأسطورة القديم البدائى عند العرب ، ومن هنا كان وهو يجمل المكان محور حركته يحاول الخلط الدائم بين موروثاته المتبقية من دينه القديم أو من ثقافته القديمة عن الديانات الأخرى المحيطة به وبين الدين الجديد ومقدساته .

يقول الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه الأساطير ...

" لو كانت بقيت لدينا آداب العرب الدينية الأولى أو صلواتهم أو أغانيهم الشعبية أو وصاياهم التى كشف عن نظائر لها فى بابل وآشور لكان الأمر فى تقييم وتصوير طقوسها شيئاً خصباً حقاً يضيف إلى تراث الإنسانية ما هى فى حاجة إليه لتستكمل كثيراً من ملامحها الضائعة " [2] .

---

(١) التاريخ العربى القديم لنيلسون .

(٢) الأساطير لأحمد كمال زكى .

والواقـــع أن حكاية نظرة الله على الماء تلك التى جعلت الماء يتحول إلى بخار بعـــد أن ارغى وأزبد وغلى ... تلك التى ذكرها الثعلبى هى التى اثارت عندنا هـــذه الـــنقطة التى تصلح مجالاً للدراسة المقارنة ... فمما لا شك فيه أن هذه التصـــور وليد للربط بين عبادة الشمس وبين مفاهيم مختلطة عن حقيقة ما يتم فى الطبـــيعة من تفاعل وهو يتلمس الحديث عن ظهور مكة أم القرى كوسيلة لتغطية هذه اللمحة المتسربة على ضمير القاص العربى القديم ...

والعـــرب قد عبدوا الشمس سواء فى اورتلت الذى هو ديونيسوس كما يرى ديتلـــيف نيلســـن أو هو رع الفرعونى المصرى كما انحنا ... فقد اشار العرب القدماء للقمر والشمس اللذين عبدوهما بهلال أفقى واثرة ...

ويحكى الهمدانى فى كتابه الأكليل وهو من أهم الكتب التى دونت نتاج أديب الأسطورة العربى ...

" كان (رئام) المقدس فوق جبل انقاض أرى همدان – وكان متجعاً للحجيج وأمامـــه قلعـــة أمام بابها الضخم حائط نقشت عليه دائرة الشمس واضيف إليها الهـــلال ، حـــتى إذا خرج الملك ووقع بصره على صورة الشمس أنحنى أمامها من فوره ... "[1] .

ولحـــن نستطيع أن نقرر بعد هذا كله أن أديب الأسطورة العربى نسج حول المكان عدة أعمال مختلفة من حيث الشكل والمضمون ومن حيث الوظيفة والغاية .

فمـــنها مـــا يقع تحت باب السرد القصصى العادى ، أو ما يمكن أن نسميه بـــالحكى والعـــرب حكاءون بفطرتهم يغرمون بهذا اللون من المتع الفنية فى سمرهم المتصل بالليل فى أثناء تجمعهم حول النار فى الصحراء بعد مرحلة من مرحلة مضنية عـــبر الصحراء فى تجارة أو بحثاً عن الكلأ والمرعى ، أو بعد يوم منهمك قضوه فى

---

(1) كتاب الأكليل للهمدانى .

الصيد أو فى الحرب والغزو ... وكذلك ولعوا به فى مسامراتهم التى اشتهروا بها فى مدنهم وخلقت عالماً كاملاً من هذه الحكايات بدءاً من المسامرات المتناثرة فى كتب التاريخ والأدب وانتهاء بالعمل الكبير المجمع المسمى بألف ليلة وليلة .

ومنها ما يقع فى باب التركيب القصصى الفج يولده الخيال البدائى ويربط بين الموروث العقائدى والمتطلب الوجدانى للمتلقى المسلم الذى توجه له مثل هذه التركيبة القصصية . وهى هنا أشبه بالنادرة أو الأطروفة التى يوفيها أسم المكان وماله من قداسه ، أو التى تستمد مما لهذا المكان من عراقة وجدانية عند عامة العرب والمسلمين ...

ومنها ما ترتبط التراكيب فيه وتمتزج لتكون نسيجاً قصصياً معقداً شديد التطور والنضج ، تتضح فيه سمات درامية بارزة ، وتصبح الشخصيات المستعملة فيه شخصيات تجمع السمات المكونة لها كملامح مفردة دالة على نموذج بعينه ... كما ينمو فيه الصراع بوضوح ليجعل تطور الحدث تطوراً طبيعياً متمشياً مع الأصول الدرامية الكاملة التى تعكس تخبط الإنسان فى قدره ومحاولته الفكاك من أسر هذا القدر ، وسواء نجح فى الفكاك من هذا القدر كما فى السير الشعبية بعامة أو لم ينجح كما شهدنا فى قصة مضاض وميا أو فى حكاية الجرهمى التائه أو النهاية الحتمية لخضوع ذى القرنين لقدره حكم بالغة ورغم جاهه وجبروته.

ويكاد الشعر فى كل هذه الأحوال يمثل عنصراً أساسياً فى طريقة السرد وفى نسيج القص وكذلك فى لب التجسيد الدرامى .

والشعر مثله مثل العمل القصصى نفسه ، فأما هو مجرد سرد منظوم للحدث القصصى الذى سبق أن أورد نثراً ، وأما أشعار واضحة الافتعال توضع على لسان الشخصيات بصرف النظر عن إمكانها قول الشعر أما لأن الشعر لم يعرف عنها ولم

يذكر أنه كان من مواهبها ... وأما لأن هذه الشخصيات نفسها لم تكن تتكلم العربية أصلاً كالشعر الذى يتلى على لسان هود أو لقمان فى وراعة للأنسر السبعة أو على لسان عاد أو الرائش . وهو أيضاً قد يكون شعراً يلتحم مع العمل القصصى التحاماً عضوياً هاماً بعد عن حالة نفسية من حالات الشخصية القصصية التى يرد على لسانها ليؤكد الموقف القصصى ويعمقه ويبدى من جوانبه ما قد تعجز اللغة النثرية عن أبانته وأيضاحه ، وأمثلة هذا الشعر رأيناها فى قصة مضاض وميا مثلاً ... .

إلا أن هناك نوعاً آخر من إنتاج أديب الأسطورة العربى نسجها حول المكان وتختلف عن كل الأنواع التى سردناها . ذلك أن الجزيرة العربية مليئة بالآثار التى نبعت عن ملوكها الأولين . وذلك أن رحلة القاص العربى تجاوزت الجزيرة بعد ذلك إلى أصقاع العالم الإسلامى فى شرقة وغربه وكلها مليئة بالقبور التى أحتوت أجداث وكنوز الأمم السالفة والشعوب البائدة ...

وقد أكتشف العرب هذه القصور وتلك القبور ، وحول هذه الاكتشافات أمتزجت الحقيقة بالخيال أمتزاجاً غريباً أنشأ نوعاً فريداً من أنواع الحكايات الخرافية انبعثت فى كتب التاريخ والأدب حينا ، وظهرت فى ثنايا السير الشعبية الكثيرة حيناً آخر ... ولنا عند هذا النوع وقفة ....

******

(٧)

تحفـــل كتب الأخبار وكتب التاريخ والسير ، وكذلك تمتلىء كتب السير الشعبية القصصية بوقفات غريبة ومميزة عند بعض الأماكن الأثرية المدفونة والمخبأة للملوك السابقين والشعوب البائدة ، ووقفة الكاتب تحكى القصص وتنســـــج لا حـــول الأثـــر نفســـه وإنما حول اكتشاف الأثر ، وهى فى بعض الأحيان تجعل الكشف نفسه ، أو رؤية الأثر نفسه مجال الحكاية الخرافية . وهى فى أحيان أخرى تهتم بتفاصيل القبور والقصور المخبأة وما امتلأت به كنوز وذخائر ... وهى فى أحـــيان كثيرة وخاصة فى السير الشعبية تجد فى هذا الكشف مادة جيدة لبناء جو خيالى مفعم بالطلاسم والأحجية التى تلد عقل المتلقى وتشحذ خياله ، فتخلط بين التماثـــيل وأعوان الجان ، وبين الكتابة الرغبية على الأعمدة والتماثيل وبين تعاويذ السحر وطلاسم الكهانة ...

فحـــول مديـــنة أرم ذات العماد ينسج القاص الشعبى نسيجاً من أكثر ما أورده إغـــراقاً فى الخـــيال ، وحـــول كشفها بنسيج أيضاً نسيجاً مغرقاً فى الخيال والإثـــارة ، يقـــول : وهب بن منبه محاولاً تفسير آيات القرآن حول هذه الحادثة تفسيراً قصصياً .

لمـــا أرســـل الله هوداً إلى قومة من أبناء سام بن نوح كذبوه فوعدهم الجنة والنار فعادوا إلى تكذيبه وقالوا له على لسان قائدهم : (يا هود أنت وعدتنا بالجنة ووصـــفتها لنا وأوعدتنا بالنار ووصفتها لنا فى الآخرة ... أما نحن فقد رأينا خير هـــذه الدنيا فلسنا تاركين الحاضر للغائب بقول قائل صادق أو كاذب فنحن من قولـــك فى شـــك أو تبين لنا ما قلت عن أمر الجنة والنار ... فأخرج لنا مدينة نسكنها ونسميها على اسم أبينا إرم بن سام تكون لنا مفخرة إلى آخر الدهر).

وهم يسألونه هذا استهزأ به وسخرية ، أما هود فقد أخبرهم أنه يخشى أن ينسوا الوفاء بالعهد إن هو أخرج لهم المدينة ، وأوعدهم إن كذّبوا بعد رؤية المدينة أن يهلكهم الله بمثله تكون عبرة على مر التاريخ ... قال قائدهم البعيث :

الـــرأى أيها القوم أن نسأله أن يخرج لنا هذه المدينة فى الحفيف ... فقال لهم هود على أن تعاهدوا الله الإيمان ... قالوا :

لك علينا هذا يا هود . فسار معهم هود إلى نمر الحفيف وقال لهم أذهبوا عنى إلى نجاد الأحقاف فإذا هب عليكم نسيم المسك اقبلتم إلى ... قال البعيث : هيا بنا يا قوم ... إلى نجاد الأحقاف نرقب أن يظهر لنا كذب هود .

وناجى هود ربه فأخرجها الله لهم قصور الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والـــدر والزبـــرد وقصورا مليئة بلبن اللجين والعقبان ، وقبعاتها بالمسك والكافور والزعفران . فقال لهم البعبث :

حذار يا قوم أن نورها يعشى العيون ... حاذروا على عيونكم .. إياكم والهرب لا تخافوا لا تخافوا ... ما هود إلا ساحر ... ما هود إلا ساحر ...

فقـــال لهم هود هذه التى اسمها ارم على اسم أبيكم فإن آمنتم كان لكم بها فضـــيلة عـــلى الخلق إلى يوم القيامة وإن رغمتم فأن الله قوى عزيز يهلككم كما أهلك من قبلكم ممن كان أشد منكم عتواً فى الأرض فأنا أعلم أنكم لم يؤمنوا ولن يراها أحد من خلق الله إلا رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم [1] .

رآها تميم الدارى زمان عمر بن الخطاب ....

وتمـــيم الـــدارى تدور حوله أساطير قريبة شبيهة بحكاية اوليس الإغريقى ، ولكن تميماً وهو صاحبى مشهور وهو أيضاً أول من تصدى للقص فى الإسلام خرج هارباً من أرضه فى الشام وضل فى البحر كما ضل اوليس والتقى بأهوال وغرائب

(1) كتاب التيجان لوهب بن منبه .

منها الجساسة الشيطان قبل أن يصل على الرسول عليه السلام فى مكة المكرمة ويسلم على يديه ... والإيهام بأن كل هذه التفاصيل حقيقة تأتى من ذكر رؤية تميم لها ، وتميم فيما يبدو من تاريخه شخصية تستهوى لب المتلقى وتستثر حواسه.

أما كيف رأى تميم المدينة وأين ذهبت ولماذا اختفت فليس من شأن كاتب الأسطورة العربى أن يجيب عن كل هذه الأسئلة :

ومن النوع الثانى الذى يصف فيه أديب الأسطورة واحداً من هذه الأماكن الأثرية ويستفيد من وجودها كعنصر من عناصر عمله القصصى بقية حكاية الجرهمى التائه مع إياد بن نزار ، فيحكى ابن منبه فى كتابه التيجان أن أيادا بعد أن وصل بالحارث الجرهمى إلى مكة كما وعده طلب منه أن ينجزه ما مناه من الشراء ... فقال له الحارث :

قم يا بنى وأمش بنا إلى يسار قبر مضاض ... فمشى به حتى إذا أتيا موضعاً قال له : " ماذا أمامك يا بنى ؟ " .

وذكرك أياد أن ليس أمامه إلا حجرة مطبقة على صخرة أخرى بينهما خلل يسير فأمره الحارث أن يدنو منه وأن يعينه على قلع الصخرة ... حتى إذا اقتلعت رأى أياد أمامه سرداباً تحت الأرض فأمره الحارث الجرهمى أن يدخل السرداب معه ... ولكن أياداً داخله خوف شديد وقال للحارث :

أدخل أين ؟ ... وكأنى اسمع صفير الحيات ، وهذه الريح الزهمة تنطح رؤوسنا فقال الحارث ... بل تسير بين يدى ودع عنك الخوف ... هيا ...

فسار أياد بين يديه حتى آتيا صخرة أخرى مطبقة على صخرة ليس لهما عندها منير فأدخل الحارث يده اليمنى تحت الصخرة وهو ممسك عضد أياد بيده اليسرى فقلبها فإذا سرداب آخر أسفل من ذلك فتولى أيادا الخوف فأخذ الحارث

بمنكبه لئلا يهرب عنه وأدخله بين يديه فسارا حتى أفضيا إلى دار تحت الأرض لم يدر أياد من أين كان ضياؤها ... وحين أردك الحارث خوف أياد ...

قال له ... لا تخف مما ترى فأنك ستخلص من هنا وتمشى على الدنيا من تسلك قبائل وقبائل ... وما كاد الشيخ ينتهى من كلماته حتى ارتعدت فرائص أياد وقال فى فزع .

أيها الشيخ هذا تنين هائل أسود أحمر العينين يجر عرفه جراً يجول وسط الدار كأنه الجبل العظيم ... فقال له الحارث :

مكانك لا تتحرك فسيمضى عنك ... ومضى التنين واختفى كما قال الشيخ ... ثم استمراً فى سيرهما حتى أتيا بيتاً قد خلا فإذا به أربعة أسرة ثلاثة عليها ، ثلاثة رجال وواحد ليس عليه شىء ووسط البيت تل من الدر والياقوت واللجين والعقبان ... وهنا قال الحارث :

يا أياد أما وعدتك بوقر جملك من هذا الذى تراه فخذ وقر جملك إذ ليس لك غيره فأن زدت غللت ...

فأخذ أياد وقر جمله درا وياقوتا وذهبا وأخذ خياره وترك بقيته آسفاً ... وحين انتهى من ذلك ... قال له الحارث ...

يا أياد أتعرف من هؤلاء الموتى ؟

ولم يكن أياد يعرف فأخذ الشيخ يفسر له ما يرى ... فقال :

أما السرير الخالى فهو سريرى وهذه نهاية رحلتى ... وأما هذا الذى على يسار عبد المسيح نفيله أبوه ابن عبد المدان . آخر ملوك جرهم وما تبقى هو آخر ما تراه من ملك غابر وعز عريق فاتعظ يابنى ولا تغرنك الدنيا ...

وكان على رأس كل منهم لوح من رخام عليه كتابه ... وحين سأل أياد الحارث الجرهمى عن هذه الألواح أذن له فى أن يذهب لقراءتها ... فعمد أياد إلى

السرير الذى كان على يمين باب البيت فأصاب شيخاً كبير اللحية أسبل الخد تام العنف مسجى وعليه ثياب كالرماد فأخذ اللوح فقرأته فإذا مكتوب فيه ...

" أنا نفيلة بن عبد المدان بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود عشت خمسمائة عام وقطعت تمور الأرض باطنها وظاهرها فى طلب الثروة والملك فلم يك ذلـــك ينجينى من الموت ثم مال أياد إلى الثانى فإذا بفتى لم أر أجمل منه وجهاً كداره القمـــر ولحية سوداء قد بلغت بطنه وسترت صدره ، عليه ثياب كالبهاء ، وأخذ اللوح الذى على رأسه فإذا فيه مكتوب :

" أنا عبد المسيح بن نفيلة بن عبد المدان عشت مائة سنة وركبت مائة فرس واقتنصت مائة بكر وقتلت مائة مبارز وأخذنى الموت غصباً ودارانى أرضاً " .

فمال عنه إلى الآخر فأصاب شيخاً كث اللحية خارج الوجنتين قصير العنق واسع المنكبين عليه ثياب كالهواء فأخذ اللوح عن رأسه فإذا مكتوب فيه :

" أنـــا مضـــاض بـــن عبد المسيح عشت ثلاثمائة عام وأخذت مصر وبيت المقدس وهزمت الروم بالدروب ولم يكن لى بد من الموت ، وحين انتهى من ذلك اللوح قال له الجرهمى :

أقرأ اللوح المعلق فوق السرير الخالى ... فقال اياد متعجباً :

ولكن أيها الشيخ كيف يكون فى اللوح كتابة وأنت تقول أنه سريرك وأنت بعد حى تعيش أمامى ... فقال له :

وبعد حين لن أكون حيا ... أقرأ ... وحين تناول اللوح قرأ فيه ..

" أنـــا الحارث بن مضاض عشت أربعمائة سنة ملكت مائة سنة وجلت فى الأرض ثلاثمائة سنة متغرباً بعد هلال قومى جرهم ... ثم عدت إلى أرض القرار إلى اليوم الموعود فلكل عذاب نهاية " .

وما أن انتهى من قراءة اللوح حتى قال له الحارث :

أعطـــنى تلك القارورة التى فى الكوة فقد انتهى أوان الطواف وحان حين القـــرار ... وحين أموت يا بنى أخرج بحملك وأذهب إلى قومك ... وأعطاه أيـــاد القارورة فشرب الحارث نصفها وطلى جسده بنصفها ثم صرخ هائلة وهو يرقد فوق السرير الخالى كأنه عليه منذ أجيال ... وحين لف السكون أيادا هرع خارجاً وهو ينتفض يحمل حمله من الدر والذهب ولا يكاد يصدق بالنجاة ...

هـــذا الـــنموذج نوع مغاير للحكى العادى الذى شاهدناه فى حكاية تميم الـــدارى وارم ذات العماد ، هنا نسيج قصصى استغل وجود هذه القبور المنتشرة بكـــثرة فى الجزيرة ليكمل قصة الحارث التائه إكمالاً دراميا يتفق مع فكرة العذرية العربـــية المتأصلة فلكل شيء نهاية ولا بد أن تكون نهاية كل الأشياء هى الموت ، وهو لهذا يجرى مشهده الأخير فى هذه القصة الطويلة داخل مقبرة ...

ومـــن الواضـــح أن المقبرة من المقابر الأثرية التى وضعت فيها الجثث محنطة وأخفيـــت بمهارة عن عبث اللصوص . ولكنها من المقابر التى تستهوى اللصوص ليغامروا بالبحث فيها عن الذهب والدر ، وربط تجاسر أياد بن نزار الذى لا شك كـــان منـــبعه العثور على قبر من هذه القبور يقص الحارث التائه ورحلته إلى مكة وبحـــثه عمـــن يقوده إلى القبر ليجزيه بالكثر تصلح تعليلاً قصصياً جيداً . وهى تكشـــف عن قدرة كاملة فى خلق الحدث وتركيب أجزاء القصة لتمتلىء بالحركة والتراكب المستمر والتشويق الدائم ... و إلا أن استغلال التنين فى هذه القصة اســـتغلال عابر إذ يبدو أن أديب الأسطورة العربى هنا سمع سماعاً عن وجود جبل وأجهـــزة ميكانيكية استعان بها أصحاب القبور لاخفائها وبصد اللصوص والعابثين عنها ولكنه لم يستغل هذه النقطة استغلالاً كافياً فيما كانت تعنيه فى شيء ... إلا أنـــنا نجد استغلالاً دقيقاً يكاد يصف المغامرة كاملة التى تدور حول اكتشاف مقبرة

وضعت لها كل التمويهات اللازمة لحمايتها فى قصة أخرى لعب فيها خيال أديب الأسطورة العربى فأجاد وأتقن ...

الأساطير التى نسجها القصاص العربى حول اكتشاف الأمكنة ثروة ضخمة لأديب الأسطورة العربى ، من أجلها ما دار من وصف لداخل المقابر وما أبتدعه خيال الأديب حول طلاسم هذه المقابر وأسوارها ... والعجيب أنها ترد فى كتاب التيجان بعنوان نادر تماماً فى هذا الكتاب وهو أشبه بالعناوين التى نجدها فى ألف ليلة مثلاً ... يقول ابن هشام :

" قصة المغارة التى فيها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم ... " .

ولعل ذكر كلمة قصة هنا من أقدم المواضع التى ورد فيها هذا اللفظ للتعبير عن هذا النوع الأدبى ، واستعمال ابن هشام لها يكشف عن فهم أديب الأسطورة العربى لنوع العمل الأدبى الذى يقدمه . فابن هشام يقول :

" حدثنا زياد بن عبد الملك البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى عن عبيد ابن شريه الجرهمى ... " .

والملاحظة الثانية التى تستوقفنا هى هذه النسبة التى تعودنا أن نجد فى عنعنة الأحاديث النبوية الشريفة ، ولعل القاص هنا يلجأ إليها لمحاولة الدلالة على صدق روايته وليلبس قصته ثوب الحقيقة العلمية وهو خطأ وقع فيه القصاص وأدباء الأسطورة العرب فأضر بهم ضرراً بليغاً حين حاسبهم أهل العلم بمنطق العلماء فرفضوا أعمالهم كلها ولم يستطيعوا أن يدركوا أنها تدخل فى باب الفن والإبداع : ويقول ابن هشام :

" قال عبيد حدثنا شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة وكان معمراً عالماً بملوك حمير وأمورها قال لنا :

كان باليمن رجل من عاد بن قحطان كان يقال له الهميسع بن بكر وكان جسوراً لا يهاب أمراً ، وكان يعرف بذلك ، وكانت الصعاليك تقصده من آفاق الأرض ، وكان أكثر طلبه المغارات يطلبها في جبال اليمن وعمان والبحرين . وأتاه رجل فاتك من عبس وآخر من خزاعة وكانا صعلوكين جسورين .. فقال له العبسي ...

(يا هميسع جئناك نستعين بك وتستعين بنا) ... وقال الخزاعي :

(أحملنا من أمرك على ما تريد فنحن معك تبلغ معك مرادنا وتبلغك مرادك من أي شيء ...) .

وكان الهميسع يقصد جبلاً عليه غابة من الثعابين لا ترام فكان يخاف عنه ويرتد فلما جاءه الصعلوك كان يشجع بهما فقصد وإياهما إلى الجبل وقد أخذ سيفه وزناده ومشاعله وزاده وسار بهما حتى وصل إلى الجبل ... فقال العبسي :

ما كل هذه الثعابين ...؟ وقال الخزاعي :

فلثمت لها وما أقترب منا قتلناه بسيوفنا ... ولكن الهميسع قال لهما :

بل هي تهرب كلما تبعناها فاتبعاني ...

ولم يزالوا تتراءى لهم الثعابين وتهرب حتى بلغوا كهفاً عظيماً ... فقال الهميسع : أحسن كأن الجبل على اكتفائنا عظماً وثقلاً ... أحس الخزاعي بالخوف فقال :

لقد دخلت قلبي وحشة عظيمة ....

ثم سمعوا دوياً وزمجرة رياح .. وعلى باب الكهف .. رأوا نقشاً يقول :

لا يدخل البيت إلا ذو مخاطرة ... أو جاهل بدخول الكهف مغرور

أن الذي عنده الآجال حاضرة ... موكل بالذي يغشاه مأمور

واشتد خوف الخزاعى وبدأ يحس بالانهيار فقال له العبسى :

بى مـــثل ما بك من الجزع ياخزاعى ولكن اثبت على الكرب ينجلى ...

ولكن الخزاعى قال له :

لا قـــبل لى بهذا فأنا ما عشت لاواجه هذا التهديد المجهول ... أن الموت يترصدنا يا صاحبى ... فقال الهميسع :

أهذا وعدك لى بالثبات ونيل المراد فى أى مكان ... فرد الخزاعى وقال :

ياهميســـع قـــد عاش فى الدنيا كثير ممن لم تبلغ نفسه هذا المبلغ ... أمض أنـــت مـــع العبسى ودعنى وشأنى ... ثم تركهما ومضى إلى حال سبيله – أما الهميسع والعبسى فقد واصلا السير فى الكهف ... وبينما هما يمضيان فى السير إذا بحـــيات يصفرن عن يمين وشمال ورياح تجرى عليهما من داخل الكهف وسمعا دورياً من داخل الكهف يهز القلوب فقال العبسى ...

لقد حملت نفسك على مكروه يا هميسع ، أعلى يقيم أنت من هذا الكهف ؟ فقال الهميسع ما تيقنت إلا ما رأته عينى ... وسأمضى مهما كان الأمر ... فقال العبسى :

هل جئت بنا هنا لنهارش الثعابين ... لحظة يا هميسع ... أسمع لى ..

ولكن الهميسع لم يسمع له بل اره أن يتبعه ... فقال العبسى :

أ أبيع مهجتى ببخس يا هميسع ، لقد بعت أنت نفسك من دهوك بأبخس ثمن أفلا تسمع كلامى فتعود ... فقال الهميسع بإصرار ...

بل نمضى فى الطريق إلى نهايته ... فقال العبسى :

وهـــذه هى نهايته ... ألا ترى هذا الباب الضخم ... والا تسمع كل هذا الدوى وهذا الفحيح والحسيس والهيمنة ...

ونظر الهميسع إلى الباب ... فوجد عليه نفشاً يقول :

أنظر لرحلك لايساق فأنـــه حثم الحمام إلى العرين يســاق
يا ساكنى جبلى شمام لعلـــه يوتى بما اجتيتما الميثـــــاق
قوموا إلى الأنس أن محلـــه يدعو إلى الفراق فـــــراق

فقال العبسى :

هذا كلام الشياطين ... لا ... لا مقام لى هنا ... فصاح الهميسع :

يا عبسى ... أرجع يا عبسى ... ولكن العبسى قال ...

لا لن أعود ... قاتل الله أخا عاد ما أجسره ...

ومضـــى العبسى ، أما هميسع فقد هم أن يفر ثم حملته نفسه على الأصعب ومضـــى حتى بلغ إلى باب هو أعظم هولاً وأشد وحشة وعليه كتابة قـــــرأها الهميسع ... جاء فيها :

قد كان فيما قد مضى واعـــظ لنفسك النيـــة المسمعـــــة
أن جهل الجاهل ما قد أتـــــى وكان حبنا قلبه فى دعـــــة

وتماسك الهميسع رغم كل ما كان يحسه من خوف يجتاح قلبه ودخل الباب الثالـــث فسمع دوياً عظيماً كالرعد ... ولم يكن هذا الدوى إلا زمجرة تنين أحمر فـــاتح فاه ، فولى هميسع هارباً إلى الخلف فسكن حى التنين فوقف العادى يحدث نفسه ...

" لقد رآنى ولو كان حيواناً لم يدعنى وما هو إلا طلسم فلا رجع ثانية .. "

وهرب هميسع ولكنه حين هرب خفت صوت التنين وكف عن طلبه فأدرك أن التـــنـــــين يـــتحرك عندما يبلغ هو تأسيره موضعاً معيناً ، فأقبل يمشى قليلاً قليلاً ... ويخفف وطأ قدميه حتى وضع قدمه فى موضع ... فقال لنفسه ..

هنا سر طلسمه ... فلا حضر هنا عند هذا الموضع فحركية مرتبطة بأن أضع قدمي عليه .

فحفر فظهرت له سلاسل على بكرات ، وظل يحفر إلى أن سقط أمامه التنين ساكت الحركة خال الحس ، فأقترب منه فإذا به من معدن وقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان حمروان لا قيمة لهما ... وسار هميسع حتى أنتهى إلى باب هو أعظم هولاً واشد وحشة ، فلما هم أن يفتحه سمع دوياً عظيماً وزئيراً مخيفاً ... وإذا به أمام أسد مخيف أشد هولاً من التنين فحدث نفسه قائلاً : " أحسب أن خطره لا يزيد على خطره فلا تأخر عنه وأتقدم وأعرف خبرة " ، وسرعان ما أدرك مكان حركته فحفر حتى وصل إلى السلاسل كما صنع بالتنين حتى أبطل حركته وسقط الأسد أمامه كما سقط التنين ... وقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان حمروان لا قيمة لهما ....

ثم دخل الباب فإذا هو بدار عظيمة وفيها بيت وفى وسطه سرير من ذهب وعليه شيخ على رأسه لوح من ذهب معلق وسقف البيت مرصع بأصناف اليواقيت وعلى رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه ...

" أنا شداد بن عاد عشت خمسمائة عام وأقضضت فيها ألف بكر وقتلت ألف مبارز وركبت ألف جواد من عتاق الخيل ... " .

حدثنى هميسع قال :

ثم مال هميسع إلى الركن الذى عن يمينه فإذا هو سرير من ذهب وعليه جاريتان فوق رأسهما فى الحائط لوح من ذهب مكتوب عليه ...

" أنا حبة وهذه لبة بنت شداد بن عاد أتت علينا أزمان انفقنا فيها الطارق والتليد على عبيدنا ثم طلبنا صاعاً من بر بصاع من در فلم نجد ... فمن رآنا فلا

يـــشق بالزمان ، ولكن على بيان ، فأنه يحدث العز والهوان " . فأخذ الألواح وما استطاع حمله من در وجوهر وياقوت وخرج ...

وهكذا تنتهى حكاية الكشف عن هذا الأثر أو عن هذا الكنز أو هذه المقبرة وهى القصة التى اسماها ابن هشام :

" قصـــة المغارة التى فيها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم " .

والملمح الاساسى هنا هو هذا التتبع الكامل الدقة لحركة ما اسماه الهميسع بالطلاسم وما يمكن أن نسميه بالتمويهات والحيل الميكانيكية التى وضعت لحراسة هـــذه المقابـــر من العبث ... إلا أننا نلاحظ وقفة أديب الأسطورة لعربى عند الحـــركة النفســـية عـــند الصعاليك الثلاثة وكيف ومتى أصاب أثنين منهما قولياً الأدبـــــار.

ونلاحـــظ أيضاً أن القصة تقف وحدها دون ارتباط يحدث قبلها أو يحدث بعدها ولم يوردها ابن هشام إلا فى نهاية قصة شداد بن عاد وربما أيضاً للتدليل على صـــدق حديثه عن شداد وصدق ما نسميه من أحداث آلية بحيث يشعر المتلقى أن هـــناك من عثر على قبر شداد ، وإن هذا القبر كان يضم جسداً لشداد أذن كيان حقيقى وجد فى حقبة من حقب التاريخ ، وما رواه القصاص عنه ليس ابتداعاً من فراغ ...

والملمح الرئيسى الثانى هنا هو استخدام الشعر لا فى التعبير عن حالة يمر بها قـــائل الشعر وأنما فى أحداث التأثير هنا هو استخدام الشعر لا فى التعبير من خوف وهلـــع يدعو إلى الفرار والهرب ... إلا أننا نلاحظ أن الشعر الذى أريد به أن يكون على لسان الجن فيه من المغالطة اللفظية ما يتيح الفرصة لادعاء أن لغته هى من لغة الجان .

كمـــا أننا نلاحظ أن كلمات شداد وكذلك كلمات الجارتين قد أتبعتـــا بأبيات متحولة لهم وهلا لاتضيف جديداً على الكلام النثرى إلا أنها تؤكد الكلام وتعيد معانيه ...

ربما لأن العرب تصدق ما هو شعر . وربما لأنهم يقدرون الشعر ويحبون أن يســـمعوا ما جاء نثراً معطى إليهم منظوماً نظماً شعرياً . ونحن لم نورد هذا الشعر لتفاهـــته وعـــدم جـــداوه وأن كان يفيد الدارس الذى يريد البحث عن دلالات استعمال الشعر عند أديب الأسطورة العربى ومجالات خدمته لعمله القصصى .

وإذا كـــنا قـــد رأينا ذكر الأمكنة واكتشافها كما رأينا الدور الذى قام به أديـــب الأســـطورة العربى فى استغلال أماكن الآثار عند اكتشافها ، وما يمكن أن يفـــيده مـــن عناصرها وإسرارها وما حولها من طلاسم أو من حيل ميكانيكية فى صـــيانتهـــــــــا لنســـجه المغامرات القصصية التى تعطى هذه الأماكن قيمة قصصـــية أو درامية هامة فأن القاص العربى لم يقف فى استغلاله لهذه الأماكن عند هـــذا الحـــد ... بل لقد استطاع أن يحيل من هذه البقايا القائمة كشواهد على عصـــــور ســـحيقة فى القـــدم وشعوب بائدة مجالاً لحركة الرمز عنده فى العمل القصصـــى ...ولعـــل اروع شواهد هذا الاستغلال نجدها عند أديب الأسطورة الشـــعبى الذى أبدع سيرة سيف بن ذى يزن فى فصل خاص وهام ندر من أهتم به من الدارسين على خطره وأهميته الفنيـــــــة .

*****

(٩)

ولنتناول الآن هذا الفصل الهام من سيرة سيف بن ذى يزن حيث تصل أسطورة المكان إلى قمتها من ناحية قدرة كاتب الأسطورة العربى على استغلالها استغلالاً قصصياً رائعاً بحيث يمتزج المكان الأثرى الذى هو من مشاهدات الكاتب ليصبح جزءاً عضوياً من العمل القصصى نفسه ، يسهم فى الحدث ويثريه ، بل ويدور جزء من الحدث ملتحماً بإجزاء المقبرة الأثرية التى يقف عندها القصاص ... فليست المسألة عند كاتب سيرة سيف أسطورة قديمة حول مكان أثرى ، أو مغامرة لاكتشاف ذلك المكان يحوطها الغموض ويغذيها الخيال . وأنما المسألة عنده استغلال فنى كامل ... يقول كاتب سيف بن ذى يزن :

" مضى الملك سيف يسير وهو يقتات من نبات الأرض ويشرب من عيون الماء مدة ستين يوماً حتى ضاق به الأمر وتولاه اليأس وملأته الحيرة ... وإذ به يرى جبلين عاليين أحدهما أبيض عن يمين ، والثانى أسمر عن يسار ... وبين الجبلين بحر متلاطم الأمواج ، وكان سيره يؤدى به إلى الجبل الأحمر ، فسار إليه ومضى عليه وقد لمح فى قمته بيتا من الحجر وفى وسطه عامود طوله عشرون ذراعاً ، وكان كلما أرتفع فى صعوده ظهر البيت والعامود وأشتد وضوحهما ... ونظر سيف إلى الجبل الأخر فإذا على قمته قصر عجيب غريب ، وفى وسطه عامود كذلك الذى يتوسط البيت الحجرى ... فتعجب الملك سيف وأندهش إلا أنه واصل صعوده حتى وصل إلى ذلك البيت ووقف ببابه وهو يصيح:

يا من تسكنون هذا البيت عليكم السلام ... فسمعه صوتاً يرد عليه :

أهلاً وسهلاً بالملك سيف بن ذى يزن ...

وبيـــنما سيف فى دهشته فتح الباب وخرج منه شخص طويل القامة على وجهه أثار العبادة فقال له :

كيف عرفت أسمى حتى قبل أن ترانى ... فرد عليه قائلاً :

إن لى عشـــرين عاماً انتظرك حتى أساعدك فى قضاء حاجتك ، ومن قبلى كـــان ينـــتظرك ابى ومن قبله جدى ... والآن أدخل لتستريح من عناء السفر وتأكل من الزاد ما يسد رمقك ...

وقاده إلى داخل الدار حيث وجدها مفروشة أحسن الفرش ، وحيث وجد الطعام معداً ، فجلس إليه وأقبل عليه إقبال الجائع الذى لم يأكل طعاماً حقيقياً ستين يوماً كاملة وصاحبه يسامره أثناء الطعام ويقول له :

لقـــد كان أبى وكيلاً مع هذه الذخائر التى هى باسمك فى هذا المكان ، وأنا ورثت هذا التوكيل من بعده ... فقال الملك سيف :

ومن صاحب هذه الذخائر التى تتحدث عنها ؟ فرد عليه قائلاً :

أنها ذخائر جدك الأعلى سام ابن نبى الله نوح عليه السلام ، وقد أوصى به لك بعد ماته ... فقال الملك سيف :

وتريد أن تقول أن جدك عاصر الملك سام ... فقال له :

بل ورثها عن أبيه عن جده جيلاً بعد جيل ... فقال سيف وهو يأكل :

ولكن ما اسمك بين الحكماء ... فقال الرجل : اسمى أخميم الطالب ... وبعد أن تستريح الليلة سأقودك فى الصباح إلى الذخائر المرصودة باسمك بإذن الله .

ومـــا أن أشرق الصباح حتى قاد أخميم الطالب الملك سيف إلى العامود فى وسط البيت فرآه مليئاً بكتابة غامضة كالطلاسم .. فألتفت على أخميم وقال له :

ماذا تريدنى أن أفعل أيها الحكيم ؟... فقال أخميم :

انظر إلى هذا العامود أن كنت تستطيع أن ترقاه ... فقال سيف :

هـــذا سهل فأنى أرى درجات خارجة منه ، كما أرى حلقات أستطيع أن أعتمد عليها فى صعودى ... فقال له أخيم :

هـــذه أولى العلامات لأن غيرك لا يرى هذه الدرجات والحلقات ، فأصعد بأسم الله . وظل الملك سيف يصعد ويصعد حتى وصل إلى قمة العامود . فقال له أخيم الطالب :

ماذا ترى فى آخر العامـــــــود ؟

قال الملك سيف :

أرى نقشاً فى الحجر كأثر قدمين فى الرمال ... فقال له أخيم :

إذن ضـــع قدمـــيك فوق الأثر ... ففعل الملك سيف هذا ، وإذ بقدميه تقعان فوق الأثر تماماً ، فأخبر بهذا الحكيم أخيم الذى قال له :

انظر أمامك ... ماذا ترى على الجبل الأخر ؟ ... قال سيف :

أرى أمـــامى عاموداً كهذا العامود ، كما أرى عليه نقشاً لقدمين كالنقش الذى أقف عليه ...

قال أخيم :

إذن أقفز هذه المسافة ....

وتحق هذا البحر المتلاطم ؟ ...

فقال أخيم :

توكل على الله وأقفز ، فما أنشىء كل هذا إلا من أجلك ...

ونظـــــــر الملك سيف إلى السماء ، وأسلم أمره على خالقه ثم قفز بكل قوتـــــــه ... وإذ به يجد نفسه واقفاً فوق القدمين المنقوشين على أعلى العامود الآخر وأمامه القصر العجيب الغريب ، فحمد الله وشكره ، والتفت عن يمينه فإذا به يجد أخيم الطالب إلى جواره كأنه قرينه . فقال له :

ماذا ترى يا أخميم ؟ ... فقال أخميم الطالب :

يـــاولدى ، أنـــت الذى دلت عليك العلوم والأفلاك ، فأنزل يا سيدى إلى القصـــر وأطـــرق بابـــاه ، فإذا سمعت القائل يقول : من بالباب فأخبرهم باسمك وحسبك يفتحون لك فأدخل ولا تخف ... والتفت إلى يمينك تجد سريراً مقاماً ، فأقصد إليه وارفع الستائر عنه وقف إلى يمينه وقل له :

يا ملك أنا الذى تجاوزت له عن ذخيرتك بعد انتقالك من دار الفناء إلى دار البقاء فأن سمحت نفسك فأعطنى ما وعدتنى من الذخائر فيحرك يده الشمال ثم يده اليمين فأنظر إلى صدره تجد لوحاً من الذهب الأحمر وله سلسلة من الفضة فأخرج السلسلة وفكها من رقبته وخذ اللوح وقل له :

جـــزاك الله الجنـــة ... وأخرج فى الحـــال ولا تلتفت إلى اليمين أو اليســـار ... فـــنزل الملك سيف من فوق العامود ، وسار إلى القصر ودخله فوجـــد ما أخبره به أخميم فأخذ اللوح من عنق الملك المسجى على السرير وعاد به إلى أخميم الذى قال له :

ضع اللوح هنا أمامى ، وعد ثانية إلى القصر فستجد إلى جوار السرير سيفاً فى قـــرابه فقـــل للملك ، ياملك أسمح لى أن أخذ السيف وأجاهد فى سبيل الله ، فيحرك ذراعه فأمش وخذه وتقلد به وعد فى الحال ، وغياك أن تفعل خلاف هذا ، وحذار أن تجرد السيف من غمده .

فمضى الملك سيف إلى داخل القصر كما أمره أخميم الطالب وأخذ السيف كما علمه ، إلا أن شكل الغمد لم يعجبه فقد بدا وكأنه قد أكله الصدأ ، فأراد أن

يـــرمى بالغمد ، وإذا بالصدا الذى عليه يقع عندما حاول تجريد السيف وأمتلأ المكـــان بصرخات كالرعد ، فأسرع يعيد السيف على غمده ، وقد تكشف لـــه الصدأ عن ذهب خالص فرح به وسمع صوتاً يقول :

يـــا ملـــك سيف لا تجرد السيف هنا مرة أخرى ، وأخرج قبل أن يصيبك مكـــروه فأتجه سيف إلى باب الخروج ، ولكنه قبل أن يخرج عاد ينظر إلى السرير وقد ملأه الفضول وتملكته غريزة حب الاستطلاع ، وتردد لحظات ثم ما لبث أن غلـــبه الضعف الإنسانى فعاد على السرير ، وقد قرر أن يرى وجه هذا الملك الذى يحرك يده وهو ميت ، ليعرف هل هو حقاً ميت أم حى ... ؟ .

ثم أخذ برفع اللثام الثانى ويده ترجف ، ومد يده إلى اللثام الثالث فأمتلأ قلبه بالرعـــب وحاول أن يرفعه لينظر فى وجه سام بن نوح فإذا به يحس بالسرير يرتج والقصر كله يهتز وسمع صوتاً يصرخ فيه :

يـــا قليل الأدب ، هل بلغت بك الجرأة أن تكشف عن وجوه أولاد الأنبياء بعد ما أولوك من الجميل والإحسان .

وأحـــس الملك سيف أن الأرض قد خسفت به ، وأنه يطير فى الهواء تتقاذفه أيـــد جـــبارة لا يراها وقد امتلأ المكان بالصرخات والزعقات ، وأهتزت جنبات القصر كله كأن شيئاً يهزه ويهدمه ... وسرعان ما رأى نفسه مرمياً خارج باب القصر ... ثم غاب عن الوعى ...

وعـــندما فتح الملك سيف عينيه رأى أخميم الطالب جالساً عند رأسه يرقبه فلما رأه أخميم الطالب يحرك رأسه ... قال له :

ألم أحذرك يا ملك ، والآن هذا فراق بيننا ... فقال سيف :

كيف تتركنى ياحكيم هنا ... وأنا لا أعرف كيف أعود ...

هـــذا قدرك تتحمله وحدك ، ولولا أنك تتقلد بهذا السيف لكنت مت من زمن ...

وأعـــتدل سيف فى مكانه ليرد على أخميم فلم يجده وقام يبحث عنه ولكن أخمـــيم كـــان قـــد أختفى وأحس سيف بالوحدة والوحشة ، وجعل يتجول حول العمود وهو لا يستطيع الاقتراب من القصر ، وعندما يئس من وجود منقذ تحول إلى العامود وصق عليه ، وامتلأ قلبه بالرعب وأحس باقدامه ترتجف من تحته وأيقن أنه لن يستطيع الوثوب ، وأن وثب فلن يصل إلى العامود الأخر كالمرة الأولى فنزل يائساً وأرتمى على جوار العامود وهو يبكى كمداً وقهراً ... وظل فى مكانه إلى أن أدركه الليل ... فنام نوماً متقطعاً قلقاً وصوت البحر من حوله يتعالى وصورة ما حدث له فى القصر تبدو لعينيه وتلك الأصوات والصرخات العالية تفيك أذنبه ، وما أن طلع الصباح حتى قام يتجول من جديد ، ودار حول القصر ليجد له مخرجاً فإذا به يتأكد أن الجبل الذى يقف عليه تحيطه المياه من كل جانب وإن لا سبيل إلى الهرب ، وعند الغروب كان التجول قد أنهكه والجوع قد هد قواه فأرتمى يبكى إلى جـــوار العامود على أن راح فى نوم متقطع قلق ... وعندما أستيقظ فى الصباح كـــان الجوع قد أشتد به ، ومضى يجوب المكان بحثاً عن اى شىء يؤكل فلم يجد وعندما عاد إلى جوار العامود تأكد أنه أن مكث فى مكانه مات جوعاً .

ولم يجد الملك سيف أمامه إلا أن يخاطر بمحاولة القفز من العامود مؤملاً أن يصل على العامود الآخر ، فتحامل على نفسه وصعد إلى أعلى العامود وقف على القدمين المنحوتتين فى الصخر ، وأسلم أمره على الله ، ثم اغمض عينيه وقفز بكل قوة ولم يشعر الملك سيف إلا وهو فى قلب الماء ... وقد أحاطته الظلمة ومضى إلى القاع فضرب الماء بقدمه بشدة فأرتفع إلى السطح ، وحاول أن يعوم ولكن ملابسه كانت تعوقه فأخذ يتخفف منها إلا من سيفه وقميصه وعمامته . والماء المتلاطم يتقاذفه كالكرة العاجزة ذات اليمين وذات اليسار ، وهو يعوم مرة على ظهره ومرة على صدره والتيار يجرفه بشدة ...

ولمح الملك سيف وهو وسط الماء صخرة الجبل الآخر ، فأخذ يتجه إليها ... وأستجمع كل ما بقى من قوته وهو يشد من عزيمته ويضرب الماء بذراعيه فى عنف وقوة ، واخذ يقترب من الصخرة تدريجياً ، وكلما ازداد اقترابه ازدادت ضربات قوة ومقاومته للأمواج العنيفة شدة حتى أصبحت الصخرة أمامه لا يفصله عنها إلا مسافة قليلة .

وأحس فى نفسه العجز والقصور ، وأحس أن قواه تخور ، فجمع ما تبقى من إرادته وقوته وضرب فى الماء ضربات متتالية فإذ به يلمس الحجر ، واشتد به الفرح وملأ قلبه الأمل ، ولكنه ما كاد يمد يده على الحجر ليمسك به حتى انزلقت يده على الحجر الأملى وأبعده الماء قليلاً عنه ، فعاد يحاول من جديد وقد اشرف على اليأس ، فإذ بيده تلامس الحجر مرة ثانية وتزلق عليه وأحس بالماء يجذبه بعيداً عن الحجر فعاد يستجمع ما تبقى له من قوة وأخذ يضرب الماء ضربات اليأس حتى لمست يده الحجر مرة ثالثة ولكنها عادت تزلق عليه وقاومت نفسه وارتخت يداه ، وإذ به يحس بنفسه كاقشة وسط الماء لتعود به الأمواج بعيداً عن الصخرة وما كاد

يفـــيق على نفسه حتى وجد الماء يجذبه بشدة إلى دوامة هائلة ، وحاول المقاومة ولكن الوقت كان قد فات ... وإذ بالماء يلفه ويطويه ، ثم يدفعه فى سرعة هائلة إلى فوهـــة فتحة ضخمة فى وسط الجبل ... وحاول أن يبتعد عن الفوهة المظلمة السوداء ... ولكن الأمواج ظلت تحمله حملاً وتسير به حثيثاً إلى هذه الفوهة التى تمتص الماء فى هدير مخيف وصوت كالرعد القاصف .

ومـــا هـــى إلا لحظات حتى أحس بنفسه يتخبط فى صخر أملس ، والظلام يطبق عليه والفوهة السوداء تبتلعه مع ما تبتلع من ماء ...

فى هـــذه الحادثة من سيرة سيف بن ذى يزن يجد كاتب أضواء على السير الشعبية واحداً من المواقف التى ترمز إلى تطلع الإنسان إلى المعرفة وحيرته فى سبيل الحصول عليها وهو يقول عن احتواء النفق المظلم للملك سيف :

" هذا النفق المظلم الرهيب الذى أمتص الملك سيفاً فى أعماقه كأنما يرمـــز به الكاتب على الموت الذى هو ثمن من الأثمان الرهيبة التى يدفعها الإنســـــــان فى سبيل المعرفة " .

ويؤكد الكاتب هذا المعنى حين يقول :

" ليســـت هذه هى الحادثة الوحيدة التى يرسم فيها المؤلف موقف الإنسان المتطلع إلى المعرفة وحيرته فى سبيل الحصول عليها " [1] .

---

[1] أضواء على السير الشعبية للمؤلف .

ونحـــن نـــرى أن المؤلف هنا لم يستخدم الأسطورة ليؤكد المضمون الفنى لعملـــه وحســـب وأنما استخدمها كجزء من بنائه القصصى نفسه ، فليست هى واحـــدة من المغامرات المتشابهة التى يلجأ إليها القاص الشعبى والتى يمكن الاستغناء بواحـــدة منها عن باقيها ، وليست هى فى ذات الوقت إضافة للتشويق وإعطاء المجـــال لـــلحركة والإثارة ، وأنما هى جزء مكون من بناء الشخصية ، ووسيلة لجأ إليها أديب الأسطورة العربى ليستغل هذا الشكل الموجود بكثرة كما قلنا فى كتب الأدب وكتب التاريخ استغلالاً قصصياً وروائياً عضوياً بالفعل ...

هـــذا الاستغلال يمثل قمة عمل أديب الأسطورة العربى فى أسطورة المكان ، وخاصة فى الأسطورة التى تدور حول العثور على الأماكن الأثرية ، أو بمعنى أصح حول أسطورة استغلال وجود هذه الأماكن الأثرية فى العمل الروائى ...

فالملك سام فى الوصف الذى أورده المؤلف يحوط وجهه أكثر من لثام ونور ثبت أمامنا صورة المومياء المصرية وطريقة تحنيطها وشكلها الخارجى بعد التحنيط والقناع الذهبى والخشبى أو الحجرى الملون الذى يمثل الوجه والذى يخيل أن الوجه نضـــر وبـــاق ... ومما يؤكد صورة المقبرة المصرية القديمة الالحاح على وجود الذخائر إلى جوار الملك ومعه كل ملابسه وأهم مقتنياته . ويزيد هذا الاتجاه تأكيداً صـــورة العواميد التى تتحدث عنها القصة المليئة بالنقوش ، والمنظر قريب جداً من شـــكل المسلات المصرية وما عليها من نقوش . بل أن المنظر نفسه الذى وقف عـــنده المؤلف وهو منظر العامودين يفصلهما بحر واسع عريض يحيل إحالة مباشرة إلى أرض مصر وإلى النيل وما على ضفتيه من آثار وخاصة فى منطقة الأقصر ..

******